مختارات
فصول

جمال الغيطانى

منتصف ليل الغربة



مختارات فصول

جمال الغيطانى



منتصف ليل الغربة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٤

مختارات فصول

سلسلة أدبية شهرية

تصدر عن

الهيئة المصرية

العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة

د. عز الدين اسماعيل

إشراف

سليمان فياض

تصميم الغلاف : حسين ابو زيد

الاشراف الفنى : راجيـة حسين

أغسطس ١٩٨٤

وقائع
حارة
الطبلاوى

مذكرة ايضاحية حول واقعة
رقم ١٠٦ قسم الجمالية «القاهرة»

انه فى يوم الاثنين ، وفى التاسعة صباحا ، حضر الى قسم الجمالية عدد خمسة أشخاص ، من سكان حارة الطبلاوى ، ثلاثة ذكور ، واثنان اناث وبيانهم كالآتى :

١ ـ حسن أفندى متولى : موظف بادارة مكافحة الدودة، قسم الفقس ، وزارة الزراعة .

٢ ـ فارس سعد (الشهير بأبى قورة) : صاحب مقهى بالحسينية :

٣ ـ شمعه لطفى : حكيمة بمستشفى الأزهار النموذجية .

٤ ـ عويس يونس : فران بناحية كفر الزغارى .

٥ ــ محاسن حسن : مدرسة ابتــدائى ، تعمل بمدرسة النحاسين الابتدائية ·

وتولى حسن آفنــدى متولى الحــديث نيابة عنهم ، فأدلى بالبلاغ التالى :

« انه منذ ستة آيام قام دحروج النمرسى ، اعتبارا من الساعة الواحدة صباحا ، وحتى الســابعة ، بدون انقطاع ، بمخــاطبة آهالى الحارة مســتخدما بوقا ممــا يستعمله شرطة المرور فى الميادين والطرقات العامة ، وســبب ازعاجا للســكان ، علمــا بآنه يبتدىء كلامه بعبارات بذيئة ، تسب آهالى الحــارة كلهم ، وتصــفهم بأقبح الألفاظ ، وآنتنها وتمس العرض والشرف ، ونتج عن هذا اقلاق راحة المرضى ، والاضرار بصــحة الحاج أحمد العتر تاجر الورق ، الذى يعالج منذ عامين يسبب أعصابه ، ولما زاد الحال ، توجه اليه عــدد من ســكان الحارة وجيرانه القــدامى ، وطلبوا منــه الكف فردهم بعنف ، وطالبهم بفعل مافى وسعهم ، وكرر مرات آنه حر ، ولايعنيه آحد ، ولايوجد نص قانونى يعاقبه · لأن الجهاز الذى يستخدمه لايخضع للقيود المفروضة على استعمال مكبرات الصوت الكهربائية ، وذكر آرقام مواد ونصوص قانونية ، ثم حدثهم عن ماضيه الطــويل ، اذ

عمل جنديا فى الخـدمة السرية لقـوات الأمن العـام ، وأعلن (هناك شهود على ماقاله) ، آنه خرب بيوتا عامرة خلال خدمته ، وآن آحد آقاربه يعمل الآن بمنصب هام للغاية ، ويقوم بتمزيق كافة الشكاوى المرسلة ضده بعد اطلاعه عليها واحدة ، واحدة ، ثم آغلق الباب بعنف • وفى الواحـدة صباحا بدآ حـديثه اليومى ، قذف من جاءوه واحدا واحدا بآلفاظ بذيئة ، وعبارات غريبة ، عندئذ آطل بعض المسنين ، صاحوا عليه راجين السكوت، واحترام الجوار • فالنبى عليه الصلاة والسلام آوصى على سابع جار ، وهنا زاد بذاءته وسبهم بآلفاظ تخدش رجـولة كل منهم ، وآطلت غويشة امـرآته لأول مرة ، وأعلنت وقوفها بالمرصاد لكل من تسول لها نفسها التهجم عليها ، آو على زوجها • وقالت انهـا صاحبت حـريم الحارة والحى آربعين عاما ، جمعت لزوجهـا دحـروج معلومات تكفى لسد كل بيت بالجبس ، ثم ذكرت آمثلة، وسبب وقوع مشاجرات بين آفراد عائلات لم يسمع لهم حس من قبل ، مما اضطر السـكان بعد سـتة آيام من العذاب المتصل اللجوء الى الشرطة ، وآنهى حسن أفندى أقواله مطالبا الأمن العـام بالتدخل لحمـاية الأهالى من المذكور وامرآته غويشة ، فالبيوت العامرة تكاد تخرب •

ومن ناحية أخرى أفاد مسعد أفندى القاطن أسفل المذكور ، أنه سمع مكبر الصوت أول ليلة وقيل فيه : «آلو ‧ ‧ آلو ‧ ‧ واحـد ‧ ‧ اثنان ‧ ‧ ثلاثة ‧ ‧ الخ» وتلاوة البسملة عدة مرات ، وبعض آيات الذكر الحكيم ، عندئذ طلع الى دحروج ظلنا منه أن مصابا وقع ، مما استدعى تجربة مكبر الصوت فى هذه الساعة المتأخرة تمهيدا لتلاوة القرآن فى اليوم التالى ، وعندما طرق الباب فتحت غويشة وقالت بدون مقدمات «أخيرا حانت الساعة» ، ولم تدع فرصة لمسعد أفندى كى يستفسر عن أى ساعة تقصد «انما أكملت» دحروج سيحقق ما انتوى ‧ ‧ قل لجيرانك ، وجيران جيرانك ‧ ‧ أخيرا ‧ ‧ حانت الساعة ‧ ثم أغلقت الباب بعنف ، وأقسم مسعد أفندى على صحة ماحدث بفتحه المصحف على سورة ياسين ، ووضعه على عينيه وأقسم يمينا ‧ ‧

كما قدم المدعو فارس الشهير بأبى قورة ، شريطا سجل عليه بعض من أقوال المذكور عن طريق المكبر ، «تم تفريغ محتويات الشريط» واستعان بجهاز تسجيل ماركة جروندج خصصه لاذاعة أغانى أم كلثوم على زبائن المقهى ، وأفاد الجميع بأن الحارة لم تعرف القلاقل من قبل ، وتعد من أهدأ الحارات وأقلها فى عدد المشاغبات

والحوادث نادرة بها ، وسكانها مسالمون لايميلون الى ازعاج الغير ، ويحترمون القوانين والجوار الذى لايقل بالنسبة لاحدثهم عن عشرين عاما ، وآبناؤها التلاميذ متفوقون ، ومنذ عشر سنوات جاء ترتيب سيد ابن الحاج نصيف الثالث على شهادة الاعدادية (وطالبوا باجراء بحوث وتحريات تثبت هذا) والآن لايستطيع الطلبة استذكارا ، بسبب آعمال المذكور دحروج وامرأته غويشه» .

. . .

ملحق ١

«محتويات شريط مسجل عليه بعض آقوال المذكور، ولم يتضح فى هذه التسجيلات ، هل تمت ليلا آو نهارا ، ولم يعرف تاريخ كل منها ، برجاء وضع ذلك فى الاعتبار» :

١ ــ .. الا اذا اطلعتم بانفسكم ، ورآيتم مارآيت ، وهذا مستحيل ولم يتوفر لانسان قبلى ، أذكركم هنا بالمهن العديدة التى عملت بها ، اتقنت كل منها . قضيت بها زمنا ، آذكركم بآخر آعمالى ، خدمتى خمس عشرة سنة فى صفوف الخدمة السرية بالأمن العام ، تنقلى بين جميع المديريات ، والمراكز والقرى ،

سفرى الى بعض بلاد العالم فى مهام خفية ، لن أتحدث عن تفاصيلها الآن ولكن سيحين الوقت ، ستذهلون ذهولا عظيما وتقولون ، كيف عاش بيننا ؟ أكثر من ثلاثين عاما تواجدت بينكم ، هل شعرتم بى ؟ هل عرفتم أمرا واحدا عنى ؟ هل سمعتمونى أتحدث عن أحد بما لايليق ؟ طال صمتى والآن يمكننى قول مافى قلبى وعقلى ، ستجدون كلامى شيقا ، البعض سيضيق به مؤقتا ، لكنهم فى النهاية سيوجهون الى شكرا ، لأننى قومت حياتهم وأظهرت ماتعرفونه • ولكنكم تتجاهلونه، لكن العذر حق لكم ياأهالى الحارة المساكين ، من لديه خبرة عمر مثلى ؟ من أمسك ببواطن الأمور ؟ من أدرك الحقائق الخفية مثلى ؟ •

٢ ــ •• يامعلم يونس ، والله أرثى لك ، سخرت منى ولن أرد عليك خذها منى نصيحة ، أنا لاأحب الشجار ، ولا الوقوع فى مشاكل ، طول عمرى لم أقع فى مشكلة ، لم أقدم كمتهم الى أى مسئول ، لأننى من زمن طيب ، زمن حلو ، زمن عائق ، رائق ، غير زمانكم الموحل ، الأغبر ، لكننى سأقوم المعوج فيه ، أدبر أموره وأوجهه ، يامعلم يونس ، أنا لن أفضحك لكننى أنبهك الى ماغاب عنك ، طبعا تعرف دكان المعلم ماهر المنجد

فى بيت القاضى ، كلنا ، كل أهالى حارة الفقر هذه ..
كلنا نعرف يامعلم . من يدخل بيتك بقرطاس الفاكهة
كل أحـد وأربعاء أنت تخرج حوالى العاشرة ويسـتلم
مكانك فى الثانية عشر ، العيون تحفظ منظره بالجلباب
الأبيض ، بخواتم الذهب والصندل البنى ، الحارة كلها
تعرف ولا أحـد يخبرك ، لماذا ؟ لأن . سـكانها عندهم
مايكفيهم .. و ..

(ضجة ، تصفيق ، أشياء تسقط ، أصوات ...)

٣ ــ .. قبل أى كلام ، انتبه ياحسن أفنـدى :
ياراجل يادودة ، أنا لايفوتنى شىء أبـدا . مامن نفس
زائد لديكم الا أحصيته ، مامن همسة الا وترجف طبلة
أذنى هنـا ، ألا تعلمون أن جـدى كان عالما كبيرا فى
الأزهر وأنـه ترك لى مخطوطا قـديما وعلمنى كيـف
أستخدمه ، فأعرف منه المستقبل الآتى ونهاية أعماركم،
ألا تدركون أننى تلقيت أمرا بالحديث اليكم عن طريق
هذا المخطوط ، يمكننى أن أنبىء كل منكم بيوم يحين
فيه أجله ، ومن لديه هذه المقدرة لايغيب عنه ذهابك الى
قسم الجمالية ، تزعمك وفدا ضدى . شـكوتنى ، طلبت
ابقاء اسـمك سرا وهـذا جبن . العجيب أنكم جميعـا
جبناء ، هذه سـمة يتيمة توحد بينكم ، اذا خفت منى

أنا الفقير الضعيف الذى ناهز السبعين فلماذا لاتخش الله خالقى وخالقك ؟ بلغنى ماقلتـه عنى أمام مقهى البنان ، ماجرحت به امرآتى غويشة ، تهديك بأقاربك فى وزارة التموين ، ماذا تظنهم فاعلين ؟ اعلم ياحسن .. ياآهالى حارة الطبلاوى الكرام ، آن ابن خالة امرآتى غويشة كونستابل ممتاز ، ولاينقطع عن زيارتنا ويرجونى كثيرا آن آرد زياراته لدرجة آننى خجلت منه واعلموا آن علبة سجائره تحت آمرى ، أسحب منها وقتما آشاء ولكننى لاآستعين به قط على أعدائى ، لأن آحوالى وآمورى التى لن آبوح بها قط تحمينى وتجعلنى ....

«امرأة» : الرأى لك يادحروج ..

ـ لن آرد على ماقاله الحاج سنوسى بائع العطر .

«امرأة» : وصفك آوصافا دنيئة يادحروج .

ـ لن آخرب بيته ياغويشة ، لن آذكر مصنع العطور الصغير داخل شقته .. الحاج يتهرب من الضرائب ياغويشة ومن التامينات الاجتماعية ،ويستخدم أولادا صغارا .

«امرأة» : ياخبر ‥ والنبى لاأعرف هـذا كله ، تصور أنه يلف على صفوف المصلين فى الحسين • يمسح أيديهم بالعطر ويبيع زجاجات صغيرة يقول عنها • بركة من عند النبى ، بركة من المدينة المنورة •

٥ ـ ‥ ياأهالى الطبلاوى ، يامساكين ، ياوجوه النحس ، ياأشـقياء عندما أطهر حيـاتكم من الكذب ، عندما أزيح عنكم النفاق والاضطراب ، وأنظم أموركم بطريقتى ، سأنزل اليه ، وأطلب منكم أن تحكموا عليه، وتلقنوه درسا •

٦ ـ ‥ مثلا ، امرأة عمى بدوى عساس البهائم فى الأسـواق تتحـدث دائمـا عن أقاربها فى مصـلحة السـكك الحديدية ، والدى ، والثروات الطائلة ، دائما تكلمكم عن أهل زوجها الأشقياء الذين نهبوا نصيبه فى الميراث ، عم بدوى يرفع عليهم القضـية ، لهـذا فثمة ثروة ستأتيه يوما ، عندئذ تشترى الست نعيمة بيتا فى مصر الجديدة حوله حديقة ، وتملأه أثاثا فاخرا وتفارق الحارة القـذرة ، وأهلها الانجاس ، ياأهالى الطبـلاوى البلهـاء ، لأننى أعرف كل كبـيرة وصغيرة لأننى أعلم خباياكم ، ماتظهرون وماتبطنون ، لهـذا سـأقول لكم الحقيقة ، الســت نعيمة التى تتعالى علينا ، تحدثنا من

طرف أنفها ، لا أقارب لزوجها كما تقول ، لهـا أخت صغيرة لاتدرون عنها شـيئا اسـمها راجحة ، وتسـكن بدروما قديما في حارة سيدى معاذ ، زوجها بائع هريسة متجول ، وحتى التزم الدقة ، أقول انه يبيع بطاطا فهو يمتلك فرنا فوق عربة يد ، راجحة تساعده في كسـب العيش ، هل تدرون كيف ؟ عندما تتشاجر امـرأة مع جارتها تذهب اليها ، تمنحها قروشا قليلة ، أو ، قطعة لحم في رغيف وتسـتعين بها ، أخت السـت نعيمة لهـا محاضر عديدة في البوليس ، وعندما تقل المشـاجرات تحترف النـدب ولطم الخـدود وراء المـوتى ياأهـالى البلاوى ، ياأكذب خلق الله في زماني البعيـد الطيب ، وأين أنتم من زماني ؟ أمثـالكم لايسـمح لهم بالعيش فيه ، آه .. راح زماني الأخضر ، أيامه هنيات ، كنا في الليل نسمع الأغاني في المقاهى الدافئة ، نشرب الزنجبيل والقرفة ، نصلى الفجر ، في نفس هـذه الحـارة ينزل الرجـال يصيحون على بعضهم ، كل منهم ينبه الآخر ، وفي الليل الرائق تسـمع القباقيب ، والماء والوضوء ، ثم نخرج جماعة الى الحسـين ، ونقابل النهـار بوجوه سمحة ونفوس راضية . في زماني رأيت الأمان ذاته . لا انسـان يخاف على ماله أو أولاده أو بيته ، وكلمـا رأيت مايجرى بينكم يدركني والله رعب ولكنني ملازمكم

حتى أقوم المعوج وأعيد السيرة الصافية هنا فى حارة الطبلاوى وليلحقنا باقى الدنيا ، لن أسمح بتكرار ماقامت به الست نعيمة عندما زارت جارتها أم سهير ، وعندما دخلت لتعد شايا ، مدت يدها ودست ورقة نقدية قيمتها خمس وعشرون قرشا فى صدرها ، أنا الآن أدفع التهمة عن مجدى الابن الوحيد للست سهير والمتهم ظلما ، والمهم ٠٠ اننى لن أطيل عليكم ٠٠

٧ ــ «أصوات مرتفعة» ياكلب ٠

يا ٠٠٠ اذ ٠٠٠ اذ ٠٠٠

٨ ــ ٠٠ أرجوك يامسعد أفندى ألا تتساءل ماوصلنى وصل وانتهينا ، وأنا واثق أنك وحدك تعلم مقدار النقود التى تخبئها ، الفلوس الفضية القديمة ، الفضة الحقيقية ، فئة القرشان والخمسة قروش ، والعشرة ٠ أعرف عدد علب الصفيح المصفوفة فى منزلك ، وهوايتك ليلة الجمعة عندما تفرغ العلب من محتوياتها ، وتنشىء أكواما من النقود ، تغير أشكالها كما تشاء ، ثم تغسل النقود كلها فى طشت نحاسى كبير ثم تنام نوما هانئا ، بسبب هذه القطع من العملة والنقود الأخرى التى لن أذكر مكانها ٠ لم تتزوج ، ذاب عمرك فى عملك ٠ أذكرك بما فعلته الست نعيمة عندما سرقت

مبلغا تافها من أم سهير ! تعال نبحث عن السبب معا ، ثم دعنى أقل لك كيف نمنع وقوع هذا ٠

٩ ــ ٠٠ ياولد ياجابر ، ياسعيد ، زمانكما أجرب، لم تذوقا طعم النساء ، لم تستمتعا بأى شىء ، لو بيدى لحررت لكما جوازى سفر تهاجران بهما الى زمنى الأول، فيه عرفنا الأبكار الحقيقيات ، رآينا الحياء على حقيقته ، ذقنــا المتعــة ، الأنوثة الريانة ، كل ماتنالانه وقفــة بلا جدوى أمام مدخل الحارة ، أصغيا الى ٠

١٠ ــ وأثناء قيام السيدة لواحظ ٠

١١ ــ ٠٠ أحمد العطار الشاب العفى الذى يركب الكبير قبل الصغير ، الفائح الرجولة ، هيه ٠٠ لكنه زمن مائع ، لايعرف فيه الرجل من الآنثى ، فالمقلوب معدول، والظاهر باطن ، ولاحول ولا قوة الا بالله العلى ٠٠

بعض الوقائع

٠٠ كل ماقاله دحروج ، كتبه عبد المقصود آفندى ، لديه خبرة عمر فى كتابة العرائض والشكاوى ، يعرف المدخل المناسب لكل شخصية وذى منصب مايجب قوله ، ومالايقال ، ذكر ماقيل فى حــق امــرآته ومايسىء الى فوقيــة ابنته التى دخلت سن الزواج ، ماسيلفت نظــر

المسئولين بوزارة الداخلية بالذات. هــذا المطلب العجيب
الذى وجهه المدعو دحروج الى الاهالى ، ضرورة تعديل
أوقات نومهم ، بحيث يأوى الجميع الى أسرتهم فى تمام
الرابعة والنصف بعد الظهر كل يوم ، مع مراعاة ظروف
الذين يعملون فى نفس الفترة ، ثم يوقظهم دحروج عن
طريق مكبر الصوت ليتحدث اليهم ، وينظم امــورهم ،
لم يكتف بهذا بل منح الأهــالى مهلة قــدرها ثلاثة أيام
يتحولون فيهــا من نظام الى نظــام ، يغيرون عاداتهم ،
عبد المقصود افندى سطر خطا ثقيــلا بالمداد الأحمر ،
تحت حديث لدحروج ، قال فيــه : «منــذ الآن حــارة
الطبلاوى لها ناموس غير النواميس» .

الآن يضيق عبد المقصود افندى ، اضطر الى ذكر
أقوال دحروج حول امرأته وجيدة ، سيفضح نفسه ،
لكن من الضرورى جدا اثباتها ، اذ أنها التهمة الوحيدة
الواضحة التى يمكن أن يعاقب عليها طبقا للقانون ،
يتململ عبد المقصود افندى اذ يتخيل تهامس النساء فوق
السلالم حول زوجته «المرأة جنت على كبر» تؤكد أخرى
أنها تعرف ماقاله دحروج من قبل ، وسكتت طويلا حتى
لاتنهش عرض جارة قديمة ، مايطمئن قليلا أن دحروج
حذر كل انسان ، رجلا أو امرأة ، من تناول مضــمون

حديثه بالزيادة أو التشويش ، لكن هل يكفي هذا لربط الألسنة ، قام ، تحسس الأرض بحثا عن شبشبه ، قضى اليوم كله في البيت ينسخ العـريضة ويرقب تصرفات وجيدة ·

نظراتك غريبة ياسى عبد المقصود ·

استعاذ بالله ، يحاول ألا يعلو صوته ، كل حركاته ونظراته تفسر الآن ، كل ماتقوله هي يتحلل في ذهنه الى حيرة ، الى استفسارات ، استجابتها أسرع مما يجب لمطلبه بمنعها من الطلوع الى عشة الفراخ فوق السطح ، حجرة الأسطى عبده بمواجهتها ، سـائق النقل العـام بمفرده ، ينام اليوم كله ، ينزل في المغيب ليتسلم نوبة عمله ، ينظر الى امـرأته ، ينهض صـدرها ، لم تغب ملاحظته عن عين دحروج ، بل سخر قائلا : «هل يوجهه الأسطى عبده كما يمسك مقود العـربة» · مايضـايقه اضطراره الى ذكر هذا كله في العريضة · ربما سخر منه المسؤولون ، لكنه أحكم الصياغة ، عدد من الجيران علموا بنيته في ارسالها ، أبدوا بشرا وعلقوا آمالا ، يعرفون شهرته · بل ان أحـدهم قال بالنص : «هـذه العريضة ستذبح دحروج ذبحـا» لكن عبد المقصـود الآن يتنفس ببطء ، لم يتشاجر مع امرأته يوما ، حتى بعد انقطاعهما

عن بعض فى السرير ، يذكر الآن حـديثا لحسن أفندى متولى عن شهوة بعض النساء اذ يبلغن الخامسة والأربعين، يطشن ، ألقت ساعة الحائط ثلاث دقات مختصرة ، بعـد غد يحين انتهاء المهلة المحددة ليبدأ جميع أهـالى الحارة نومهم فى الرابعة والنصف ، سمع امرأته تتثاءب ، نظر اليها ، وحنق فى عينيه ٠

(٢)

باق عشر دقائق ٠

فى الواحدة يعلو مكبر الصوت ، يزن قليلا ، يلقى دحروج تحية المساء ويلعن الدنيا القائمة، ويرثى الزمان القديم ، ويؤكد أنه سينتظر كل شىء ، ثم يتلو ماوصل اليه من أخبار ، يرد عليه البعض ، وتلقى الحجارة على نوافذ شقته المقفلة ، مهما حدث لن يفتح الحـاج حمزة جزءا من نافذته المطلة على الحارة ٠ حتى الآن لم يتعرض له دحروج ، مع مرور الأيام ، وقيام الهياج فى الحارة ، أيقن الحاج حمزة أن اعتبارات عديدة تدخل فى امتناع دحروج عنه ، أهمها أنه قضى أكثر من ثلاثين عاما ناظرا لمدرسة كتخدا الابتدائية ٠ تلاميذه أصبحوا الآن رجالا، يقابلونه فى الطريق ضباطا ومهندسين وكتبة فى المصالح

الحكومية . يصـافحونه فى المقهى اذ يجلس مـرتديا جلبابه الأبيض متأملا لاعبى الطاولة ، أيضا ربما يعلم عنه دحروج موقفه عنـدما عـرضوا عليه منـذ عشر سنوات الانتقال الى مدرسة الروم الابتدائية مع ترقيته ناظرا ، لكنه رفض ، آثر البقاء فى الحى الذى ارتبط به ، ومرت أربع سنوات كاملة قبل أن يصـبح ناظرا لمدرسـته ، يعـرف أن دحـروج لم ينجب ويرثى له ، بالتأكيد يعانى ضيقا وآلاما ، لو أنجب طفـلا وألحقه بالمدرسة لأولاه عناية خاصة ، الآن لايضـيق بازعاج دحروج ، ليفعل مايشاء ، ليسب أهالى الحارة ، ليعيد الأمور فيها كيفما يشاء ، فعلا كثير من الأوضاع يجب تقويمها ، ليحدد للسكان نوعيات الطعام التى يجب أن يأكلوها يوميا ، المهم ٠٠ ألا يذكر شيئا عن بنـاته ، دحروج عالم بكل شىء ، مطلع قطعا على أفكاره الودية ، انه أول من ينفذ تعليماته ، عندما طلب أن ينام الجميع فى الرابعة والنصف ، أسرع الحاج حمزة بتطبيق هذا على بيته قبـل انتهاء المهلة بيوم ، بناته أبدين ضـيقا وامتعاضا ، أجبرهن على طاعته ٠ لابد أن يتأكد لدى دحروج أن الحاج رجل طيب ، مرب فاضل كما تتحدث عنه كلمات الطلبة فى المدرسة ، كما وصفه المدير فى العدد السـنوى من مجـلة المنطقة التعليمية ٠ فى كل

ليلة يصغى اليه ، اذ يسكت دحـروج لحظـات يمسك أنفاسه ، خشية أن توجه الفقرة التالية ضده ، تتعاقب عليه الانفعـالات · مايرعبه أن يتحدث دحـروج عن البنات ، بالأمس أبدت سعاد ابنته ضيقا ، تعودت عمرها كله استذكار دروسها من الخامسة حتى الحادية عشرة ثم تنام ، كيف تغير نظامها وامتحان التوجيهية مقترب ، أحاطها بذراعيه ، دفعها أمامه ، كاد يكم فاها ، قال : لاتنزعقى ، عمك دحروج لم يتعرض لنا ، عمك حر · صـباح اليوم جـاء بيومى السـائق بمصلحة السكة الحديدية ، قدم اليه عريضة قال ان نصف سكان الحارة وقع عليها ، والباقى سيوقع ، سوف تحـدث العريضة صدى كبيرا لدى المسئولين ، خاصة بعد طلبات دحروج الغـريبة من الأهـالى ، واصراره على نومهم مبكرين ، وتوحيد طعامهم اليومى ، على أن يتولى الطهى بيتان أو ثلاثة يوميا لكل الأسر ، مقابل مبلغ يتفاوت طبقا لقدرة هذا وذاك يدفع أول كل شهر الى حسن أفندى متـولى شخصيا ، قال بيومى ان المسـئولين سـوف يتدخلون فورا ، لأن العريضة سـترسل بالتلغراف ، والمطلوب فقط قرشان والتوقيع ، الحـاج حمزة لم يدع بيومى يكمل ، تفجر هدوء عمره كله ·

« اسمع ·· »

أسرع يطل من النافذة ، زعق مخاطبا أهالى الحارة بيومى وغيره • مع أن بيومى يقف فى الصالة ، انه لن يوقع على أى عريضة ضد جاره القديم دحروج النمرسى ، (وهنا علا صوته تماما ، وهذا مالم يعهده أهالى الحارة) • انه غير منزعج أبدا ، ومايفعله دحروج من حقه تماما ، سكت لحظة ثم زعق انه لايمت بصلة الى حارة الطبلاوى ، ولايعتبر من سكانها لأن مدخل بيته وشرفته الرئيسية تطل على شارع قصر الشوق ، أما النافذة التى تصله بالحارة فسيرسل فى طلب نجار ليسدها فى الحال ، برغم هذا سيصغى الى دحروج ، وينفذ كل مايأمر به ، خاصة وأن صحته وصحة الأولاد تقدمت بعد نومهم مبكرين ، انه ينصح جيرانه نصيحة لوجه الله : الحذار ، الحذار من أى عمل خفى ضد دحروج ، لأن الرجل مكشوف عنه الحجاب ، والا • • كيف تأتى له معرفة نص عريضة عبد المقصود أفندى كاملا ؟

(٣)

فترة تلى آذان الفجر ، يتحلل على مهل سواد الليل، تولد ملامح البيوت ، تتخلق ألوانها من جديد • ومن نبع خفى يطل بخار أبيض منظور عالق بالفراغ ، بلاط

الحارة يلمع تحت ضوء الفانوس الغـازى الوحيد الذى يبدو يتيما شاحبا ، فى مواجهة ضوء نهارى وليد ، ومن نافذة متسعة ، فى الطـابق الأول ، بالمنزل الرابع ، تطل الست روحية مع أولادها السبعة · صامتون يصغون الى مايقوله دحروج ، أيضا عائلة أم حسنى حتى الجدة العجوز ، منـذ فترة وجيزة سكت ، بدت نافـذة بيته مغلقة ، بنية اللون ، لم يرها أحد تفتح أبدا ، يعرفون أنه لن يكف تماما الا فى تمام السابعة ، لهذا ينتظرون الآن استئناف الحديث فى أى لحظة · فجأة انبثق صراخ رفيع ، حاد مسنون ، عويل متآن يبذله الجسم والنفس معا ، ممدود مقبض ، فيه خلاصة العجز الانسانى فى مواجهة أمر قاهر ، بدأ فرديا ثم أصبح جماعيا غليظا عبوسا ، نظر الساهرون من السكان الى منزل صالح أفندى ، فتحت نوافذه بصعوبة ، خرجت كلمة من بين العويل ··

ياخويا ··

استعاذ أهالى حارة الطبلاوى بالله ، كلهم بدون استثناء ، بدا خوف غامض على وجوه السيدات ، ينظرن الى نافذة دحروج المغلقة ، وكأنها باب للفرج أوصد ، أول أمس صاحت امرأة صالح أفندى فى تمام الثانية

صباحا مخاطبة دحروج ، تحدثه .. اذا آجـاط بكل مايجرى بالحارة ، طالما أنه آوتى معـرفة ماسيحدث ، وبعض الأهالى يقولون برفع الحجاب عنـه ، فليقل لها اذن : هل سيشفى ابنها تيسير ؟ وحيدها المريض منـذ عام ، الذى حارت به ، ولفت على جميع المستشفيات . يذكر آهـالى الحـارة الآن صمت دحـروج ، ثم قوله المقتضب : «ياآم تيسير ، لو طلعت شمس يوم الثلاثاء على ابنك ، ووجدته حيا سيعيش مائة سنة» ثم استأنف كلامه العادى . الآن ، يبدو الثـلاثاء جهما لايطـاق ، وتذوب الأحشاء فى العويل القـاسى ، والشمس على وشك الشروق .

(٤)

حتى مغيب اليوم التالى على ما آذاعه دحروج . لم تدر حسنية ماذا تفعل هل تذهب مع آولادها الأربعة الى ورشة الحاج بندق صانع التماثيل الخشبية ، تولول ، تجمع عليه الخلق ، تحـكى كيف تزوج فتاة صـغيرة ، ويبالغ فى تدليلها ، ولايعطى بيته مصروفا كافيا . لم تقصر فى حقه ، بداية حياتهما هنية طرية ، فى سنين زواجهما الأولى . رآت امرآة شعثاء جاحظـة ، تدفع سربا من الأطفال ، وتحمل رضيعا ، تقف آمام دكان

موبيلياتى ، تطالبه بالمصروف ، تركها منذ آسابيع ، تذكر الدم المتدفق الى وجه المرآة ، عروق رقبتها النافرة الزرقاء • يومها قالت «بندق لن يفعل هذا بى آبدا» ، قبل عودته تطمئن الى نظافة البيت ، تمشط شعرها ، تتهيأ لاستقباله ، تروى بدنها بالآطايب ، حتى تبدو ريانة يستريح اليها من عناء يوم طويل ، الآن لاتجرؤ على الذهاب الى الورشة ، ربما يبهدلها ، ستجرى فى أروقة المحاكم ، تتوه فى طرقاتها • فى نظرات الكتبة الشبان والعجـائز ، تبلى فى الانتظار ، لاتقـدر على العودة الى البلدة ، شقيقها لن يحتملها مع آولادها ، لن تطيق نظرات الحريم ، يقلن فيما بينهن «لم تنفع فى مصر» لاتدرى ماتفعله الآن ، هل ترمى نفسها من الطابق الرابع ؟ تتخلص من ضيقها ، تنهى أوجاعها ومصائبها ، اذا لم تمت ربما قضت بقية عمرها عاجزة لاتصلح لعجين آو خبيز آو غسيل ، من يدرى ربما يرق قلبـه اذ يراها مصـابة ، يحن ويرجـع الى آولاده • جاراتها نصحنها بالمضى الى دحروج ، تقف تحت نافذته، ترفع صوتها راجية آن يدلها آى السكك تسلك ؟•

(٥)

•• أمام جامع سيدى مرزوق ، يقف حسن آفندى

متولى ، يقرأ الفاتحة ، فيما بعد لم يدر الحاج بيومى هل تم اللقـاء مصـادفة أم تعمـد مقابلته ؟ عينـاه حمراوان ، لم ينم ليل الحـارة ، لم يتعود على النوم فى تمام الرابعة والنصف لايمكنه الآن الا الاضطجاع أثناء حديث دحروج ، قال حسـن أفندى انه لافائدة من أى عمـل تم حتى الآن ضـد دحـروج ، حتى عـريضة عبد المقصود أفندى المشهور بصياغة العرائض وحبكها لم تأت بنتيجة . بل ان أحـد صـورها المرسلة الى جهـة رسمية أعيدت اليه لأن البريد لم يسـتدل على عنوان احدى الوزارات ، ثم ماهى حال عبد المقصـود الآن ؟ بيته خرب بعـد عمار ، هجرته الست وجيـدة بعد أن أغرقها بالشـك ، قـال حسـن أفنـدى ان مايقوم به دحروج لايوافق عليه ، وهو لم يقصر فى سبيل ايقافه عند حده ، وأهالى الطبلاوى يعرفون كلهم ، الكبير منهم والصغير أنه أول من ذهب الى القسم على رأس وفد من الحارة ، وقدم بلاغا وقع عليه ، وأملى بصوت عال رقم بطاقته العائلية ، وحتى الآن لم يحـدث أى اسـتدعاء لدحروج فلم يره أحد يخرج من بيته ، لم يظهر لدرجة أن بعض الشبان المتهورين الذين لايدرون آخر العواقب ، قالوا فيما بينهم لاوجود لرجل اسمه دحـروج ، والا فأين هو ؟ أما الصوت الذى يخاطب الأهالى ، فربما كان

بعض الأشقياء يريدون فرض أمور خطيرة على الحارة ، وما الصوت الا تسجيل يضعونه بين الحين والحين • وربما تتعرض الحارة لظاهرة خفية ، وأمور غير مرئية، وعندما ذهب أحدهم الى بيت دحروج ، تناقش مع مسعد أفندى ، أكد له وجود دحروج وامرأته غويشة • وهذا أمر لاينكره الا أجنبى عن الحارة أو مجنون ، لأنه يعيش بينهم طوال عمره ، صحيح لم يسمع له حس ، ولكنه لم يحتجب الا بعد بدئه الحديث مع الأهالى ، وقال مسعد أفندى انه أدرى بوجوده لأنه يسكن تحته ، ويسمع صوت تحركه بالليل وبالنهار ، وهنا ارتفع صوت حسن أفندى ، هل تعلم ماذا جرى يوم أمس لشكرى ، أحد الشبان ، قال بيومى انه لايعرف بسبب تغيبه فى السفر ، قال حسن أفندى : فى المساء قال دحروج كل ماتناقشوا فيه ، وحذر شكرى مثير الشكوك ، ثم أنذره بعدم الذهاب الى امتحان الكلية ، ولو خالف فسيذيع الأدلة الدامغة بانتمائه الى احدى التنظيمات السرية التى تعمل ضد الحكومة • قال حسن أفندى أيضا ، انه رجل هادىء بطبعه لايحب الازعاج ولايطيقه، قال حسن أفندى انه يؤمن بعدم فائدة النطح فى الحجر ، وان النقش على الماء عبث ، والنفخ فى قربة مقطوعة مضيعة للوقت ، لهذا كله ، ولأسباب عديدة ، بعضها خفى ،

وبعضها معلن ، يرجو من الحاج بيومى سحب توقيعه ٠ قاطعه الحاج قائلا انه آرسل العريضة فعلا ، صحيح أن السكان لم يوقعوا فعلا كلهم ، لكنه آرسلها حتى يحرك المسئولين ، استفسر حسن أفنـدى عن الجهـات التى أرسلت اليها العريضة ٠ وكتبها فى ورقة ، آبدى غما٠ قال انه سيرسل الى كل منهـا تلغرافا يعلن تراجعه ، قال ان الناس يحبون لبعضهم الأذى ٠ ولايصح للحاج ولا لغيره ارسال العـريضة بدون آخـذ آراء من وقعوا عليها ، احتد الحاج بيومى قائلا : مجرد التوقيع يعنى الموافقة على ارسالها ، زعق حسن آفندى ، آبدا ، آبدا ، لايوجد ولن يخلق من يعلمه الأصول، هو موظف الحكومة الذى قضى عمره بادارة مكافحة الدودة ، قسم الفقس ، علا صوت الحاج بيومى موضحا ، انه هو آيضـا موظف حكومى ، أليس السائق بالسكة الحديدية موظفا رسميا يقبض مرتبا شهريا ، ويتقاضى علاوات آكثر من التى يتقاضاها موظف فى الدرجـة السـابعة ، مط حسن أفندى شفتيه احتقارا ٠ توقف بعض المارة ، تجمعوا حولهما ٠



مشاهدات الرقيب صــالح عبده ،
بالأمن الخاص فى حارة الطبلاوى
عنــدما جــاء يســتطلع الأحوال :

«ياحاج بيومى ·· ياحاج بيومى ··»

كان البعض يجيب بتصفيق مماثل ، الضوء عال، والنهار شاحب مرتحل · هدوء ثقيل مراق بســخاء ، منذ دخوله الحارة لم ير طفلا ، أو امرأة ، عادة يتصايح الصبية حوله ، يمشون خلفه يتوقعون منه حركة عنيفة مفاجئة ، فيحتفظون بمسافة معينة ، ربما اتقن الأهالى هنا تربية أولادهم ، حرموا عليهم اللعب فى الحارة ، توقف فى الطابق الأول أمــام باب جهم المنظر ، خبط مرات ، لم يجب أحد ، دق الباب بعنف ، حركة صغيرة مترددة ، صوت شبشب ، عــاد يطــرق البــاب ، يأتى همس ، اثنان يتبادلان الحديث ، لم يدر أهما رجلان أم امرأتان أم رجل وامرأة ؟ صــفق مــرتين ، عــلا صوت :

ــ ماهذا الازعاج ؟ ألا نستطيع النوم فى راحة ؟

ــ الحاج بيومى موجود ؟

ــ فوق ·· فوق ياعالم · ارحمــونا ، ودعــونا ننام ·

طلع الحاج ملتفا فى عباءة قديمة من وبر الجمل ورثها عن والده ، عيناه ضيقتـــان ، فيمها آثار نوم ، الشرطى صـــالح لاتزعجه مثل هــذه المقابلات ، أمثال الحاج يتباهون قائلين : طول عمرنا لم نمض الى قسم بوليس ، ولم نقف أمام نيابة ·

«أنت قدمت»

لم يكمل الشرطى صالح حديثه ، قاطعه الحاج ، صوته رفيع حاد كصفير قاطرة متحشرج ·

ـ أنا لم أقدم ولم أشك من ··

ـ ولكن ···

ـ تنـــازلت ياأخـــى · تنـــازلت عن الشـــكوى والعريضة ، المصـــارين تتصـــارع فى البطن ، مابالك ونحن جيران ؟

ينظر الشرطى صالح دهشا ، قال الحاج انه تنازل عن كل شىء ، وأنه على اســتعداد للذهاب الى السجن بسبب ازعاج السلطات ، لكن آن يسأل سؤالا واحـــدا حول جاره العزيز : لا · ثم يجب على الشرطة اختيار الوقت المناسب للحضور الى النـــاس ، آما اقـــلاقهم فى أحلى ساعات النوم ···

نزل الشرطى صالح الى الحارة · نوافذ البيوت

مغلقة ، تلفت حوله حائرا • دخل بيت دحروج ، فى منتصف الليل قبل بدء الحديث اليومى ، قيل ان دحروج خرج وتحدث للشرطى فعلا ، وان ضحكاته سمعت واضحة لمن لم يدركه النوم فى المواعيد المحددة ، أيضا استفسر دحروج عن بعض الأشياء ، أبدى اهتمامه تجاه أسماء معينة ، أبدى الشرطى دهشة • قال دحروج انه يعرف هؤلاء كلهم ، وكبيرهم رهن اشارته ، ثم أوصاه باتمام اجراءاته على أتم وجه ، فى هذه اللحظة دخل الحارة المعلم يونس الفرآن • رآه الشرطى صالح يرفع يده بالتحية اذ يمر تحت بيت دحروج ، النوافذ مغلقة لكنهم يثقون أنه يراهم ، يعرف من ألقى السلام ومن لم يلقه ، يعرف من جرؤ على تناول الطعام بمفرده خارج الحارة • أو فى بيته ، الحاج حمزة يفتح النافذة يوميا قبل نومه ، ويزعق بالسلام حتى بعد تعرض دحروج بالكلام لابنته الصغرى ، وذكر بعض تفاصيل علاقاتها بمدرس الكيمياء • أم تيسير منذ رحيل ابنها، بمجرد أن يبدأ دحروج حديثه تنزل مهرولة بقميص النوم ، ترفع ذراعها زاعقة تحت النافذة : «الله أكبر •• الله أكبر» عليه وعلى شبابه ، دحروج بركة ، أى مخلوق يجرؤ على شكواه ستناله مصائب ومحن ، وتغرقه رزايا • حتى الحاج أحمد تاجر الورق ، المريض

بأعصابه ، قال لكل من زاره آخيرا : ان صوت دحروج الليلى لايزعجه بل ينبئه آن شفاءه سيتم قريبا ، وآنه قبل ماكلفه به دحروج من قيامه بدور الوسـيط بين المتخاصمين فى الحارة · بعد فترة آيقن رآفة دحروج به ومراعاته لظروف مرضه ، لم يعد يتخاصم آحد ، ومن لديه وجيعـة يمضى بها طارحا اياها آمام دحـروج ، أسند اليه آخف المهـام ، وفى الواحـدة صباحا يقف بالشرفة ، ويضـحك ، ويهز رآسـه موافقا ، يصيح مستحسنا مايقال ، عنـد باب الحـارة توقف الشرطى صالح عبده لم ير آحد ، لاينوى توجيه آى سؤال ، رآى طفلا صغيرا يتجه الى مدخل الحارة · لمعت عيناه لحظـة واتجه الى الطفل · انحنى حتى قارب رآسه · ·

ــ اسمك ياشاطر ؟

ــ سعد ·

ــ انت من هنا ؟ من حارة الطبلاوى ؟

أومأ الطفـل ، بدا قلقا ، الأطفـال لايكذبون ، كواجب آخير سيحاول آن يعرف منه ·

ــ يعنى آلم تسمع ميكروفونات آبدا بعد · ·

هز الطفل رآسه · ابتسامة مرتعشة قلقة ·

ــ خيالات ياشاويش · · آبدا · · آبدا · ·

ـ هل تنام يابنى ..

رفع الصغير عينين شاحبتين ، بدا متعجبا : أى سؤال هذا ؟ ما الذى يقوله هذا الشاويش ؟ انفلت يجرى مسرعا .

★★★

« تأشيرة على المذكرة الايضاحية رقم ١٠٦ م ، وعلى تقرير الشرطى صالح عبده ، وعلى عرائض مقدمة من بعض آهالى حارة الطبلاوى ، وشكاوى من مجهولين ، ونصوص مكالمات تليفونية ، لمواطنين رفضوا ذكر أسمائهم» .

« **يحفظ** ... »

منتصف
ليل
الغربة

اشارة تليفونية

من مديرية الصناعة الى مديرية الصحة

بناء على اشارتكم لنا بتاريخ اليوم ، بخصوص سرير خال بالاستراحة طرفكم ·

نرجو حجز مكان باسم السيد/ يوسف عبد الرحمن الموظف المستجد طرفنا ·

مبلغ الاشارة

امضـاء

تتراجع البيوت على مهـل : الدكاكين الصـغيرة ، والاعلانات ، وألواح الزجاج ، يصيح رجل مناديا على تاكسى بالنفر ، تنساب أغنية من بيت قريب ، يذيعونها دائما فى هذا الوقت ، وحدة الظهيرة ، تزيد من الحركة، يعود الناس من أعمالهم فى مدينته البعيدة الآن ، كان اذ يرى أباه يصيح : هيه ·· بابا جه ·· بابا جـه · لاتذكره الأغنية بأيام راحت · بل تثير فى نفسه تراب الحزن الدفين ، أيام حلوة مزهرة مشرقة · جرى فوق رمال الشاطىء ، احتوى البحـر بعينيه ، وسامية بين ذراعيه ، أطعمته بيدها لحم السمك المشوى الأبيض ، مسحت عن شفتيه قطرات ماء البحر مالحة الطعم ، الآن يعض شفته ، وقع عجلات حنطور رتيب ، الهواء حوله بارد ، قالوا له ان برد المدينة شديد ، خاصة اذا مانزل الليل ، قالت أمه : اذا شعرت ببرد ضع جريدة قديمة فوق صدرك ، ربما تقف الآن فى الشرفة ، تعرف أن يوسف لن يظهر عند منحنى الشارع ، أبوه لم يصل ، ربما جاءت أخته الآن ، كان يروح ويجىء بين الغرف ، يقرص أخته ، يسألها : هـل تعرض لها أحـد ؟ يأكل بسرعة ، يمد يده ، يداعب ذقن أمه ، تحكى له عمـا رأته عندما نزلت تشترى السـمك ، دارت ·· بحثت حتى وجدت السمك الذى يحبه ، الأسـواق مافيها الا

الشبار الصغير ، عند رجوعها قابلت السيدة آمينة ، كلمتها عن محمد الذى جاء وقرآ فاتحة ابنتها ، سعاد لم تتعلم ، ولها ثلاث آخوات كلهن بنات • آصولها ترضى بأول ابن حلال يجيء للبنت ، يصغى يوسف • فجأة ، يسأل آمه : ألم تحضر بنت حلوة كالقمر ، وتسأل عنه؟ فترفع آمه يديها وتطلب من الله تعالى آن يعجل بهذا اليوم الذى ترى فيه عروس ابنها ، تجاوزت العربة آخر بيوت البلدة الخلاء يتسع ، النخيل يتشابك ، الحنطور يمضى متمهلا •

★★★

الأربعاء ٢٢ ديسمبر

هل خاف الأطباء على آنفسهم من العدوى فآثروا العزلة ، لكى أقطع المسافة حتى المدينة لابد آن آمشى نصف ساعة فى طريق مترب ، خال تماما من البيوت والعشش ، تماما ماتوقعته لحظة رؤيتى المبنى ، النوافذ مستطيلة وكبيرة جدا ، مغلقة ، وكأنها لاتفتح آبدا ، أما الشرفة فقد أحاطت الطابق الثانى كله ، محمولة على قوائم خشبية ترتكز على الأرض • لحظتها تذكرت بيوت مدينتى البعيدة • ذات الواجهات الخشبية ، أه من رائحة الغسيل المنشور فى الهواء وملح البحر • لو

أغمض عينى ، وأفتحهما ، وأجـد الطـرق والمتاجر النظيفة والنساء الجميلات ، والبحر • لم يمر يوم الا ورأيته ، فى الليل أرهبه ، أخاف لو مشيت فأجد نفسى فوق مياهه • أمشى بعيدا عن السور ، ربما امتدت يد غليظة الأصابع ، وشـدتنى الى أعمـاقه ، ابتعد عن وشيش الأمواج ، العمق المحسـوس غـير المرئى ، بدا المبنى خربا عند عبورى حديقة الاستراحة الجرباء • تيقنت أن هناك من يرقبنى ، اقشـعر ظهرى ، طلعت السلم الذى يدور حول المبنى ، الدرجات الخشبية مغطاة بأوراق شجر جافة ، الصمت كالجبل كأن العالم خرب ، مدينتى البكر واسعة العينين لم توجد أبدا ، مع أننى فارقتها منذ ساعات •

فجـأة ظهر عبد المقصـود ، كنت متعبا • عيناى تكادان أن تنغلقا حـزنا وتعبا • انـه طـويل الجسم والعنق ، جامد الوجه ، ينظر دائما فى خط مستقيم • لم يرحب عبد المقصود بى ، نفس الجمود الذى قابلنى به الموظفون • لم أسـمع من يقـول : حمـد الله على السلامة • أنا أيضـا بادلتهم نظـرات الكره ، خاصة الشاب المتـأنق ، والعجـوز صـاحب الصـوت الملىء بالرغاوى • تبعت عم عبد المقصود وصداع أليم فى

قلبى ، لم أصدق أننى بعيد عن ساميه ، عن البحر ، وقد أسندت الحقيبة أمامى • وأطرقت مدة برأسى ، مغمض عينى •

«يوسف»

★★★

١ ــ الدكتور جلال محمود مرسى
من ١٢ ــ ٧ ــ ٦٨ حتى ١٣ ــ ٧ ــ ٦٨

٢ ــ محمد فوزى عبد السلام
من ٢٠ ــ ٨ ــ ٦٨ حتى ٢١ ــ ٨ ــ ٦٨

٣ ــ يوسف عبد الرحمن
من ١١ ــ ١٢ ــ ٦٨ حتى ••••••

★★★

ــ يعنى مفيش حــد فى الاســتراحة غــيرى ياعم عبد المقصود ••

ــ أيوه ••

ــ لو نزلت البلد دلوقتى ورجعت متأخر مين يفتح لى ؟

ــ آنا دايما تلاقينى تحت • مابنزلش البلد غير قليل خالص •

ـ لكن السكة وحشة خالص ياعم عبد المقصود ٠٠

ـ شوف يايوسف آفندى ٠ الحته دى طول عمر خلا ماحد هوب ناحيتها ٠ والطريق خطر ، وآولاد الحرام كتير ٠

ـ يعنى الرجوع بالليل مش مأمون ٠

ـ ده اذا جالك قلب وقدرت يايوسف أفندى ٠

★★★

الأربعاء ٢٢ ديسمبر :

لا آعرف ما الذى يجرى لى لو لم آحضر كراستى والقلم ٠ فى مدينتى انقطع عن الكتابة بالشهر ، واليوم آلجأ اليها مرتين ٠ فى العصر كسرت عادتى ولم أنم ، البرد يشتد ، لاآستطيع القراءة الا تحت البطانية ، ثم ٠٠ لو نزلت البلدة ، مع من أقضى ليلتى ؟ المقاهى قليلة وصغيرة ٠ فى بلدتى لو جلست على مقهى ، فى حى غير شارعى ٠ لنظروا الى بريبة فكيف هنا والناس يعرفون بعضهم ، قال آبى ان آهالى البلدة كالحريم ينتهون من عمالهم ، ويدخلون بيوتهم ، فلا يخرجون منها الا فى صباح اليوم التالى ٠ قال آبى الله يبعدنى عن أولاد الحرام ، قلت وعيناى تدمعان

والجرس يرن رنته الأولى : سأقضي وقتي وأذاكر انجليزى ، وأقرا الكتب ، ونصحني بأنني لو استطعت أن أجد شابا في مثل سني ، غريبا ، ونستأجر غرفة أو شقة . وكنت أعلم لماذا يقول أبي هذا ، حتى لايضحك على أحد ويوقعني في بنت قد تبعدني عنه ، وتقطع ماقد أرسله الى العائلة ، وعلى العموم نساء البلدة كلهن لسن جميلات كفتيات مدينتي ، آه من الزحام والشمس الحلوة صباح الجمعة عند محطة الترام الرئيسية والهواء يهب مشبعا بزرقة البحر ، عند المحطة رأيت سامية لأول مرة ، بلوزة بيضاء ، جونلة برتقالية ، جورب أسود ، حذاء أبيض كبير ، عيناها في لون ، أى لون .. عسل النحل ، رأيتها كمطر خفيف ينزل على مهل في يوم حار ، أوراق زهر صغيرة تكسو الرصيف في أيام مارس الأخيرة . نجم شاحب بعيد قصي له عينان واسعتان ، وأنف دقيق ، وشفتان كالفراولة ، قلت لن أجد مثلها . لو انى خلقت بنتا لتمنيت أن أكون مثلها . لفترة حاولت أن أقيم علاقات مع فتيات يسكن في شارعنا ، لكنني ترددت ، وارتعشت قبل حديثي اليهن ، ونصحني زملائي بالجرأة ، وهاهي . لو ضاعت ، هذا الشيء الخفي الذى لا أراه ولا أدركه ، لقضيت عمري بعيدا عن جنس النساء ، حاذيتها وقلت

لهـا ان قلبى قد ارتجف عنـدما رآها ، واننى أشـعر
بصداقتها لى من زمن . توقفت ، نظرت الى وابتسامة
على وجههـا حيرتنى . قالت آه ومـاذا بعـد ، اصرار
عجيب انتابنى . سألتها عن اسمها ، فى أى سـنة هى
قالت أولى ثانوى . ثم قالت اننى ظريف ، وطيـب .
وفجأة كفت وطالبتى بالابتعاد ، قلت لها اسمى يوسف ،
واننى حاصـل على دبلوم تجارة متوسـط وسـاعمل
قريبـا ، واننى أنوى دخول امتحان الثـانوية العامة
فلابد من الالتحاق بالجـامعة ، وقلت يمكننـا مذاكرة
الانجليزى سويا ، ضحكت وكررت اننى طيب جـدا ،
وسألتها أهذا مدح أم ذم ، فطلبت منى برقة الا اتقدم
معها أكثر من ذلك ، بيت خالتهـا يقترب ، قلت اننى
انتظرها وأرجع معها حتى لو قضيت الليـل هنـاك ،
ابتسمت وقالت لاداعى . تابعتها حتى اختفت ، وكررت
فى ذهنى عنوان المدرسـة ، فجأة صحت بأعلى صوتى
انطلقت أجرى ، أجرع هـواء البـحر ، ألتهم الطريق
الليـن . وددت لو أوقف كل من يقـابلنى لأقـول له
ماجرى ، ضـحكت وداعبت أمى كثـيرا حتى ظنت أنى
شـارب حاجه ، وقلت لها انك أعظم أم فى العـالم .
عنـدما قابلتها ليلة سـفرى ، دمعت عينيها ، قلت لها
ربما غبت عنك شـهورا ، قالت أسـافر معك ضغطت

يدها ، الكازينو خال الا منا المصابيح الملونة تضيء فى انكســـار ، وبقـــايا الأمطـــار فى منخفض من آرض الحديقة وغناء من بعيـــد ، قبلتهـــا ، تخللت أصـــابعى شـــعرها الناعم كالليل • آقســـمت لى بتربة آمها آنها سترسل كل ثلاثة آيام خطاب ، ســتقول كل شيء جرى لها ، وللمدينة ، وفى المدرسة ، اذا نزل المطـــر ، اذا هاج البحر ، لو دخلت الســـينما مع آبيهـــا وزوجته ، فستحكى لى بالضبط مارآته من آفلام ، وعندما خرجنا كان للهواء طعم القرنفل ، المصابيح عالية • ضـــوؤها مخنوق كصوتها لحظة الوداع ، لو آنها معى لانقلب كل شيء • عـــدت أصغى الى آزيز الصـــمت • تطلعت الى السقف المرتفع جدا • عندما سألت عبد المقصـــود عن هذه المدفأة الرخامية • قال ان الانجليز كانوا يتدفأون بنارها • سألته هل حضر آيام الانجليز هنا ، قال انهم هم الذين بنوا الاستراحة لمهندس الرى ، وكنت واحدا من الذين وضعوا حجارة المبنى وآخشابه فوق آكتافهم ، ثم عينت فيـــه • صـــمت فجأة ، وبدا غير راغب فى الكلام • آسند الدورق وخرج • لاآعرف مايفعله فى هذه اللحظة ، كآنه لم ينم ، انمـــا يطـــل على من ثقب البـــاب ، ارتعش دمى ، نفضت مايتـــدافع الى ذهنى ،

تأملت الكتب محاولا اختيار رواية آقتل بها مابقى من وقت ..

«يوسف»

★★★

تمسك يده بحافة النافذة ، يمرق شريط الضوء اللامع يكشف العربات التى بدت مستطيلا واحدا ، مرور العجل فوق فواصل القضبان ، قطار الثانية عشرة قادم من الشلال الى القاهرة ، مفتخر لايقف أبدا، يوسف يتابع الرجال النائمين على المقاعد الزرقاء فى العربات ، آخرون يشربون الشاى ، يأكلون الجاتوه فى عربة الأكل ، يبدو عليهم ملل ، الرحلة طويلة ، لو يركبه يوسف ، بعد ساعات يقف فى القاهرة ، ثم قطار آخر ينقله الى البحر ، لكم يبدو بعيدا وبطيئا هذا الوقت الذى سيمضى عليه هنا ، حتى يحصل على اجازة ويسافر . يسيل الضوء ناعما فى الخارج . آضواء المدينة البعيدة خافتة تزيدها بعدا . فجأة ينتبه الى وجود رجال فوق القنطرة الحجرية ، هل عبد المقصود بينهم ؟ لايرى الملامح ، آياديهم طويلة تلمس ماء الترعة ، لايجرؤ على اغماض عينيه ، لو يأتى بأقل حركة ربما تنبهوا اليه ، تنبعث من بعيد أصوات

مجهولة لم يميز منها الا مايشبه اطلاق النار . هل له صلة بعمل الرجال . لايعرف من آى جهة يجيئون ؟ يظهرون فجاة ، ربما يخرجون من الاستراحة ، فجاة . يضيع كل مايراه ، يتبخر الضوء الناعم ، تضيع معالم الحجرة ، تحته فراغ وفوقه ، هل أصيب بالعمى المفاجيء ؟ هل يحيط به غرباء أقزام ؟ عمالقة ؟ لن يطلع عليهم النهار . هنالك ، لن يعيش اللحظة التى تلى هذه ، لن يدرى أحد ، لن يحميه عبد المقصود ، يتحرك مشلولا ناحية السرير ، تتقلص أصابعه ممسكة بالبطانية ، ينتزعها بعنف ، ويلفها حول جسمه ، يصطدم اصبع قدمه بالمقعد المدبب الحواف ، لو قطعوا لسانه اللحظة لما شعر بالألم ، يسند ظهره الى الباب . وحيد تماما . نواة ملقاة فى فراغ حتى من النجوم ، والأرض ، وذرات الرمل ، وسامية ، وحراشيف النخيل .



ـ صباح النور . لا والله ماسمعتش . أصل النور بيطفى بعد الساعة اتناشر . وابور البلد بيقف .



الخميس ٢٣ ـ ١٢ :

. طلبني المدير ، سألني عن مجموعي في الدبلوم ، وسرعتي في الآلة الكاتبة وأعطاني ثلاثة خطابات ، طلب مني أن أنسخها ، شعره يلمع وأسنانه بيضاء يتكلم برقة ، يتناول بين لحظة وأخرى قلمه الحبر الطويل المغموس في محبرة نحاسية ، ليؤشر به كلمة واحدة فقط ، كدت أقول له ان الاستراحة مزعجة ، وانني لن أرجع الليلة اليها ، غير أني ترددت ، ماهي مبرراتي ؟ خرجت من عنده ، وفوجئت بزملائي ينتظرون خروجي ، سألوني عما قاله سيادته ؟ قلت : لا شيء . سكتوا ، نظروا الى بعداء . جاء رئيسي الشاب ، أعطاني عشر استمارات صرف لأراجعها . نظر الى الدوسيهات الكثيرة أمامي . قال لابأس اذا كان العمل كثيرا عليك ، لكن هذا لابد منه حتى تتمرن . قلت أبدا . فجأة سألني عما قال المدير ، قلت : لاشيء . وفعلا لم أر في كلامه مايستحق أن أكرره ، غير أنه اعتدل واقفا ، نظر الى بعداء لم يخفه . كنت مجهدا ، وعيناي مليئتان بالصابون الحارق ، وعندي ميل الى القيء . تخز قلبي صورة سامية . بعد فترة جاء ، وأشار الى حقيبتي الصغيرة ، قلت له عما بها ، كراستي ، ورواية لم

أتمها ، وثلاثة مظاريف خطابات ، ومحفظة نقودى ، لأنى لاأحمل نقـودى فى جيبى • قال على مسـمع من الآخرين ، انه لا مجال لقـراءة الروايات هنـا ، وان العمل جاد ، وانه هـو نفسـه لايحب أن يحضر أحـد موظفيه روايات أثناء تأدية العمل الرسـمى • عنـد الساعة الثانية وقعت أمام اسمى ، وفجأة ، جاء الساعى العجوز ، وطلب أن أكلم المدير ، تلفت حولى غير أنى لم أهتم بنظـراتهم ، ودخلت الى سـيادته ، ابتسم ، ولاحظت بدهشة أنه قصير القامة ، بعكس مايبدو أثناء جلوسه ، قال : لعل العمل لايكون ثقيـلا على نفسى • ارتحت • فارقتنى الرغبـة فى النوم • كأنهـا لحظـة رؤيتى سامية قادمة من ناحية البحر ، قلت : أبدا ان العمل لايرهقنى ، قلت فى نفسى : بعد دقيقة أكلمه عن الاستراحة ، كدت أقول له : أشعر بأننى أتكلم أول مرة مع انسان منذ وصـولى ، قال : هـل تعرف أحـد الموظفين هنا ؟ قلت : أبدا • سكت لحظة ، وقال : أنا هنا مثلك ، وربما أنت أعزب • أنا عندى أسرة مقيمة هنا • وللأسف هؤلاء الموظفون لايكفون عن الحديث عنى • سكت ثم تابع : طبعا هذا شيء مزعج • ولكن لو عرف مايقولونه بالضبط سيصبح الأمر غير ذى أهمية ، كل ماعلى أن أسمع مايقولونه فقط ، وأنقله بالحرف الواحد

لا أزيد ولا أنقص ، وبهذه المناسبة · هل تكلموا فى
موضوع يخصنى اليوم · قلت : لا أذكر ، لوح بيده ،
وبدا وجهه غير مهتم ، وطلب منى أن أنتبه من الآن ،
خرجت والرغبة فى النوم تعاودنى ، ذهبت الى المحطة ·
جلست فوق رصيف المسافرين ، ثلاث بنات تلميذات ،
وقفن بعيدا عنى · ينتظرن أوتوبيس الديزل الصغير
الذى يصل المدينة بالقرى الصغيرة ، القريبة ، لم أنظر
اليهن ، أين هن من سامية ؟ بل أين البحر ، الطـرق
اللامعـة المتعطشـة الى ماء ا لمطـر ، الأشعة البعيدة
كجناحى طائر محدودب ، أين البهجة فى وعائى عسل
النحل المصفى ؟ تضحك ، تتقدمنى الى الترام ، ننزل
آخر الخط ، نمشى بجوار البحر الذى يتنفس بقـوة ،
فجأة نجرى ، نجلس فى نهـاية اللسان الحجرى ، أسـند
رأسى الى فخذيها ، أحيطها بذراعى ، ربما رآنا أحد ،
لكننى أقطف ثمار الفراولة ، والكمثرى ، وأشرب عصير
المشمش ، اذ تهدأ تأوهاتها ، نتحدث عن آمال نرجو أن
تتحقق ، ليس من المعقـول أن نقضى حياتنا فى هـذه
المدينة ، ياسامية ، بعد زواجنا سنرحل الى السودان ،
الى أريتريا ، الى بـيروت ، الى أوروبا ، نطـوف المـدن
البعيدة معا ، نجلس على المقاهى تحت سفوح الجبال ،
نخرج قلما وورقة ، نكتب تكاليف الرحلة الأولى · نثير

بعض الاعتراضات ، غير أننا نتغلب عليها ، ها ٠٠ ربما تفكر سامية فيما قلناه الآن ؟ هل يعرف هؤلاء الموظفون أى مشاريع صغيرة رسمناها معا ؟ هل يدرى المدير بأحلامنا ؟ كأن دنياهم تتوقف على معرفة ماقالوه أو ماقاله ؟ يثور بى الخاطر أن أركب أول قطار الى مدينتى ، الى سامية ، وأسند رأسى على صدرها وأبكى، أبكى بلا دموع • قمت حاملا حقيبتى الصغيرة ، الرصيف خلا من الركاب ، والفتيات رحلن الى قراهن البعيدة ، وسامية خرجت من المدرسة الآن •

«يوسف»

★★★

ـ أنت فاكر كلمتك فى ايه ياعم عبد المقصود ، ايه رأيك تبات معايا • اديك شلن كل ليلة • السريرين واحد ليه • وواحد ليك • كل ليلة شلن • آه والنبى • أحسن الأوده واسعة والبيت فاضى ، والحتة كده شكلها يخوف •

★★★

لو معه راديو لسمع الأصوات المنبعثة من العالم ، هنا بيروت ، هنا لندن ، اذاعة الجمهورية العراقية من بغداد ، محطة الاذاعة العربية من موسكو ، عدن ،

الجزائر ، تختلط الأصوات ، تضيع النداءات ، حنين حاد يتحرك فى دمه ، أو يسمع أغنية من قرب ، أصـــوات الرجال ستبدأ بعد قليل فوق القنطرة • منـــذ ســاعتين دخل عبد المقصود • تلفت حوله ، عيناه فحصتا كل مافى الحجـــرة ، كأنه يدخلها أول مـــرة ، ثيابة المعلقة فوق المشـــجب ، الحقيبـــة التى مازالت مفتوحة ، الحـــذاء ، الجورب ، الفـــوطة الملونة بخطوط ســـوداء ، المشط ، سأله عما يفعله بالكتب ، سكت •• ثم سأله عن سنه ، فقال يوسف : تسعة عشر عاما • قال انه صغير • تمدد ملتحفا بالبطانية ، أنهى الحديث فجأة ، لايدرى يوسف ما الذى يفعـــله الآن ، يطفىء النـــور أم يبقيـــه ، عبد المقصود لم يطلب اطفاءه ، لايعرف هل رجعوا الى القنطرة ، لكن ربما يطردهم عبد المقصود • يظن أن يوسف يرصـــد حـــركاتهم فيناله ضرر • قرض يوسف شفتيه ، برغم أن مظهره ينم عن نـــوم عميق ، غير ان احساسا خفيا يقول ليوسف : عبد المقصود لم ينم ، لو نظر الى عينيه من الناحية الأخرى ، لرآهما مفتوحتين • خفت الضوء ، بعد قليل ينقطع ، منذ لحظات خـــرجت حفلات السينما الأخيرة ، أربع مرات دخلها مع سامية • تقول لزوجة أبيها انها ستذاكر مع صاحبتها ، تاهت

نظراته على السقف ، وهو لايعرف ما الذى تفعله سامية الآن .

السبت ١٢/٢٥ :

أرعبنى الليلة عبد المقصود ، ظـل سـاعة كاملة ينظر الى ، متجمدا كالحجر . قطع ماكنت آود آن أسأله عنه . حياته ، نزلاء الاستراحة ، وحدته . وفى الهواء تصاعدت رائحة عرق لم آشمها فيه من قبل ، بالرغم أنه تمدد من ساعة موليا وجهه الى الحائط . فهو يرقبنى الآن . آذناه تسمعان حركاتى ، تحصيان دقات قلبى ، أنا تعب ، خطابات سامية لم تصـلنى بعـد . كل يوم يوم أسأل مدير البوستة قبلى البلدة . آنا حزين ، وآكاد أبكى ، لاآعرف لماذا يبدو عبدالمقصود غامضا، ولا أعرف لماذا يبدو عبد المقصود هكذا .

«يوسف»

★★★

الساعة الثانية صباحا تقريبا . آقصى عمق لظلام الليل ، يوسف لم ينم ، حتى قطار الثانية عشرة لم يمر، يصر السرير فجآة ، يكف الهواء عن دخول رئتيه ، حفيف جلباب عبد المقصـود لم يعـد متمددا فوق السرير .

ما الذى ينويه ؟ هل صمته ، اخفاء حركاته ، يخفى أمرا ، ينزل يشارك الرجال فوق القنطرة ، لايتجه الى الباب ، يقترب منه ، لحظات الكابوس · صراخه المكتوم من الأنف ، وشلل الجسم ، وصياح أبيه · اصحى ·· اصحى ـ ولو ، فمن يهرع اليه هنا ·· من يهز جسمه حتى يفيق ؟ من ·· من ، يصر السرير ، ليس كابوسا، عرق عبد المقصود يملأ أنفه ، عبد المقصود يلامس جسمه ، يده الغليظة الخشنة تسد فمه ، أنفاسه ساخنة لزجة تقشعر ماوراء أذنيه ثقل جسمه ، اليد الأخرى تمتد الى بنطلون بيجامته ، الحجرة تغرق فى زيت لزج، لو يصرخ ·· لكن من يجيب لو يزعق ؟

★★★

« كنت تقول لى ، انك لو نظرت الى وجهى لشعرت بحزن لايحز فى قلبك ، انما يشحن نفسك بمـا لاتدريه أنت ، وسألتك كيف تحزن اذ تنظر فى وجهى ؟ قلت انك حائر ، وهنا فى الغروب كل ليلة أذهب الى صاحبتى سعاد أذاكر معها ، وأرى وجهك أكثر من مرة فى الطريق ·· عند منحنيات الشوارع ، أمام محلات عصير الفواكه ، أتذكر مشروعاتنا للسفر ، وأتخيل نفسى أننى سافرت وحدى ، الى بلدة صغيرة عند حدود

العالم ، شوارعها مبلطة ، وكنيستها قديمة ، أجلس فى مطعم له شرفة خشبية ، وفجأة أراك تعبر الطـريق ، ولاأكون متوقعة رؤيتك ، فاقفز من مكانى ، أناديك ، تدهش أنت اذ من يناديك بالعربية فى هـذا المكان ؟ تفتح ذراعيك ، تدور فى الهـواء • أسـألك ما الذى جاء بك ، وتسألنى ما الذى جاء بى ؟ ولاتسعنا الفرحة فنتمنى لو تحولنا الى طائرين صغيرين ، وطرنا الى أعلى الجبال المغطاة بالثلوج •• آه •• هل تذكر عندما كنت أتقدمك فى نزول سلم السـينما الطـويل الحـديدى المفروش بسجاد أحمر ، كنت تقـول لى •• أنت الآن تنزلين سلم البوينج ، ونخرج الى الشارع ، تقول اننا اجتزنا الجمارك ، فلاشىء معنا نحاسب عليه ، ثم تشرح ثم تشرح كل ماتراه ••

يوسف

فى اليوم الواحـد أفكر فيك يومين • هـل تذكر الجمبرى ؟ هذا الطريق الطويل المفـروش بالظـلال • ساعات يخيل الى أن المدينة خراب بدونك ، لم أعرف قسوة الفراق الا لحظة موت أمى ، ورحيلك أنت ، سأكتب لك كل ثلاثة أيام ، ربما كل يومين ، وربما كل يوم • واذا ماكتبت لى ، فلاتكتب أقـل من أربـع صـفحات

فولسكاب ، لابد أن أعرف كل كبيرة وصغيرة عنك ۰
أكلك ، نومك ، شربك ، أصحابك ، وقتك ، كل شيء
حتى أهدأ ، حتى أستريح ، وأخبرني متى ستحضر ۰

المخلصة لك

سامية

★★★

الأحد ١٢/٢٦ :

أكلت في المطعم الوحيد ، سألت الرجل عن مسكن خال حتى لو كان جحرا ۰ فقال ان مامور المركز كان أولى ، وانه لايستطيع احضار عائلته لأنه لايجد مسكنا، ونصحني ألا أتعب نفسي ،فأهالي البلد لايقبلون عزابا۰ في العصر خنقتني الغيوم ، همت على وجهي لاأجرؤ على اخراج خطاب سامية ، منذ جئت أنتظره ، عندما قرأت خطها الرقيق خجلت من سطورها ، وبكيت ۰ وحقدت على لون الضوء المتسلل في الفراغ ، والنوافذ الكبيرة المغلقة ، والرجال الذين يحملون أكياس الفاكهة الى عيالهم ۰ أغرقني النهر حزنا كالنحاس الأزرق ، واذ رأيت بنات المدرسة الثانوية ، وثيابهن الرمادية ، تذكرت سامية ، وارتعشت ، كأنها تنظر الى من مكان لا أراه ، بعيدة عني ، لكنها تلمحني من مكان خفي ،

وجهها فى الفراغ . أينما رحت ينظر الى برثاء ، كدت أرمى نفسى فى النهر . كدت أضرب المدير القصير عندما طلب منى فى حدة أن أنقل اليه مايقال عنه حرفيا ، وأن أعتبر هذا أمرا ، بدا لى أنه يعرف تماما ماجرى ، وأنه على صلة خفية بعبد المقصود . أما الموظفون فنظروا الى بسخرية من وراء الدوسيهات ، طلب لى أحدهم شايا ، ولم أدر سبب الود المفاجىء ، كدت أرفضه ، وفى كل رشفة شعرت بنظراته . هاأنا أسقيك شايا . أنا لست أقل شأنا من عبد المقصود طبعا، آخر النهار سألت عم محمد عن مكان خال ، فقال : هذا مستحيل ، حتى الباعة ، خادم المقهى ، هزوا رؤوسهم ، كلهم يعرفون ، حتى الرجال المحملقون الى من فوق مقاعد المقاهى ؟ المتجهون الى المحطة ليركبوا القطار . كلهم يعرفون ، مهدوا لما جرى ، لو أعود الآن الى مدينتى ، يعرفون فورا . قلت فلأنم الليل على رصيف المحطة ، أتأمل القطارات التى تجىء ، ولاتقف .. شربت شايا ، امتدت مخالب طيور صغيرة تنهش كبدى ، نزول السواد يمنعنى من العودة الى الاستراحة ، مقدمات المغيب كالطاعون ، تطردنى البيوت الى الخلاء المؤدى الى غابة النخيل .

يوسف

★★★

« •• أنا عـارف كويس انك دورت على لوكاندة طول اليوم • وكمان فكرت انك تسافر ، ولما يئست فكرت انك تنام على رصيف المحطة ، لكن البوليس لازم يمسكك • آنا عارف انك مش حتلاقى • حتى لو لقيت، فمش ممكن تسيب الاستراحة برضه • انت هنـا • عندى • آنا مش مخليك تحتاج حاجة آبدا • بس تقول لى على كل اللى انت بتعمله • تقـرالى الجـوابات اللى بتبعتها لأبوك وآمك •• وآصحابك • اذا دخلت فيلم تحكيه لى • آنا من سنين مادخلتش سينما • وبعدين الكتب الكثيرة اللى انت جايبها معاك دى • فيها ايه • أنا يايوسف من آربعين سنة هنا • عايش على آمل انه واحد زيك ييجى • يمكن اليوم اللى انت اتولدت فيه أنا كنت باتمنى الامنية دى • آنا وانت من هنا ورايح حته واحدة • الاستراحة كلها تحت آمـرك حتى لو انتهت مدتك الرسمية • حتفضل معايا ، آنا هنا الكل فى الكل • ياما قضيت سنين مادخل على آحد غير الصراف ييجى يسلم لى الماهية • شوف • حتى المديرية ماعرف طريقها فين • هما اللى يعرفوا طريقى •• »

★★★

« •• أقول كل شيء ولا آقوله ، الآن لم يبق لى الا أنت ، خطابى اليك ياحبيبى • هو الشيء الوحيد الذى

أكتبه على رصيف المحطة ، ومن يدريني ربما فتحوه ، وأخــذوه ليعرفوا ماقلته لك ، أما خطابات أمى وأبى وأصحابى فأنا مطالب بتلاوتها أمام شيء لن أقول لك ماهو ، انما ٠٠ انه قــوة لابد أنا مــلاقى حتفى على يديها ، الناس هنا ياسامية غير الناس ، والعيون غير العيون ، الحياة غير الحياة ، كدت أبكى عندما أدركت فى لحظة بعينها أننى لم أفكر فيك يوما كاملا ، ملامحك بدت لى باهتة ، أنا لا أكــذب عليك ، بل أصــارحك تماما ، كدت أجرى لاطما وجهى ، صرعنى الحنين اليك حتى لو أرسلت صورتك الى فلن أستطيع الاحتفاظ بها ٠ ولا تعليقها فى مكان ظاهر ، هذا الشيء لو رأى رسمك ، أخاف عليه منه ، ربما تعقبك ، ربما ذهب اليك فى مدينتنا ٠ ربما قضى عليك كما يقضى على ٠٠»

★★★

ــ يوسف ٠٠ هات فلوس عشان الغدا ٠ اسمع ٠ هات اللى معاك كله ٠ انت الفلوس حتعمل بهــا ايه ، ماتخليش معــاك غير المصروف ، وده خــده منى كل يوم ٠



الاثنين ١٧ يناير :

منذ مدة لم تصلنى خطابات من سامية ، حيرها ردى ، الآن أخاف عليها • حتى لو عدت الى المدينة ، حتى لو نقلت ، حتى لو رجعت ورأيت البحر كل يوم ، هل يعود ماكان بيننا ؟• هل نجرى بنفس الحيوية ، نضحك ، نأمل ، نتبادل القبلات ؟

★★★

الأربعاء ١٩ يناير :

صباح اليوم طلبت المصروف من عبد المقصود ، أخرج محفظته الكبيرة • قال ان الدنيا برد ، وقال اننى صرخت مرتين أثناء نومى وأيقظنى ، كان يقف على بعد متر منى ، عيناه ثبت السواد فيهما ، فى الخارج علا ضجيج قطار ، تقدم منى ، وأمسك عنقى • يده دافئة ، أنفاسه مشبعة برائحة الدخان ، لم أتحرك ، قيدت مكانى بآلاف القيود ، أحاطنى بذراعه ، قال انه لم يكف طول الليل عن الحلم بحسنية التى تمنى زواجها من عشرين سنة ، ولم يقبل أهلها ، قال انه لن يدعنى أذهب الى المصلحة ، سحبنى الى الحجرة مرة ثانية ، وكانت الشمس ضعيفة عاجزة • وكان يرتجف وريقه

يســيل ، لايعى • مــا الذى يقــولونه اذا لم أذهب •
وهمس انه اليوم سيطبخ حمــاما محشوا بالفــريك ،
وعلا ضجيج قطار •

★★★

يروح المدير فى الحجرة ويجىء ، يداه معقودتان وراء ظهره ، يثنى شفته السفلى ، يعضها ينفخ الهواء ساخنا من فمه ، يستدير الى يوسف كأنه يود لو يسأل : هل هذا صحيح ، محروس آفندى قال عنه هذا ، كأنه لايصدق • لكنه يثق بكل مايقوله يوسف الآن ، بعــد عدة أيام من نقله كل كبيرة وصغيرة الى سيادته ، شد على يده ، تأكد له صحة مايقوله يوسف ، كيف • يوسف لم يعرف ، ربما يتولى أحدهم نقل الأخبار اليه ، ثم يقارن مايصل اليه ، يدور المدير فجأة ، يقسم أن ينقل محروس آفندى الى قرى الضــفة الشرقية من النهر • يخرج يوسف ، يطلب قهوة ، لايبالى نظراتهم ، يطل على الميدان الصغير من النافذة المجاورة له ، حقا •• أى جرأة فى تبليغ النبأ الى سيادته ، لكن هذا ماسمعه فعلا من محروس آفندى ، البك المدير لايملأ عين امرأته ، لكن هل رآها واحد منكم • هل رأى الجوع المطل من عينيها ؟

★★★

.. حتى اننى أرجو أن تعذرنى ، ذهبت بالخطاب الى صاحبتى سعاد ، فهى تعرف كل شىء بيننا ، لكنها لم تفهم لم تعرف ، قالت ربما حبيبك فى ورطة ، لكن الخطاب به ماهو أشنع من ذلك . ماذا جرى ياحبيبى ، هل يهددك شخص ما ؟ هل اختطفتك عصابة ؟ هل أذاك المدير ؟ ماذا جرى ؟ أين خطط مستقبلنا ؟ أين ماتواعدنا عليه ؟

★★★

فى الصباح ، أعطاه المصروف وهو متمدد كالقتيل ، فمنذ أربع ليال يرقد من الغروب حتى خروج يوسف لايتحرك ، آخر الليل بدا متوحشا فاقد الوعى ، آلمه حتى صرخ ، بالأمس كاد يوقظه ليبادله الحديث ، فالوحشة شديدة ، ولم يعد يقتل الوقت فى القراءة ، كوم عبد المقصود كل الكتب فى الحجرة الأخرى ، لأنها كما يقول تشغل يوسف عنه ، أطل يوسف من النافذة غير أنه لم يجد الرجال الذين يجيئون الى القنطرة ، هاهو يعبر الطريق الخالى الى المقهى ، يقول الخادم ان البلدة لم تر بردا كهذا ، منذ لحظات توسط الميدان الكبير . تعب فجأة . البيوت حوله ، صامتة ، كالحة .. كأن الحجارة لها عيون وآذان ، انه وحيد حتى النخاع

واليافوخ ، لا وقع أقدام يسمع فى المدينة الا له ، جرى فى الميدان ، الأهالى ينظرون من وراء شيش النوافذ الماثل فى اتجاه الطريق ٠٠ كاد يصرخ ، مطالبا أى أحد ، أن ينتزعه من هذه الشوارع ، تلك البيوت ، المقهى حوله خال ، كل ماجرى يبدو له وكأنه يجرى أول مرة ، خطاب سامية الحزين مدفون الآن فى درج مكتبه ، الشىء الوحيد الذى أخفاه ، من يدريه ، ربما يعرف عبد المقصود كل شىء ، فمنذ ليال سأله بالحاح عن علاقته مع النساء ، يوسف يتساءل بمرارة ، لماذا يخفى عنه الخطاب ؟ لو تجىء سامية الآن ، لا آمال تبنى ، لا حديث خافت مهموس يدغدغ ماوراء الأذن ، لا قبلات ، لن يطبق البحر على جسميهما كالخيمة اذ يغوصان فيه حتى العنق ، لن يقفا أمام فتارين الأثاث ، هذا الركن يصلح فى الانتريه ٠ يوسف ٠٠ الصالون لابد أن يكون مودرن ، كأنه يدرك ضياعها أول مرة ٠٠ الآن سامية غريبة ٠ أمه ، أبوه ، كل أيامه البعيدة فى مدينته المغسولة بماء البحر ، عض راحة يده ٠٠ يخاف أن يرى سامية فجأة ، ستعرف كل شىء ٠ تهرب ٠ تجرى ، فربما أخذها من يدها ، وذهب بها اليه ٠ فعلا ٠ ضاع كل شىء ٠

يوسف يقوم واقفا ، الابر المدببة تنفذ الى كليتيه، علـى الناصـية ، دكان لبيع أدوات الحـلاقة زجاجات العطر ، الأمواس أنواع ، المقابض الحمراء ، السوداء ، الزجاج متسخ ، أصابع قدميه تتوتر داخل حـذائه ، تتشابك يداه ، ربما رآه عبد المقصـود ، يسـأله لماذا يحملها ؟ يعرف بسرعة ، ربما يرقبه الآن ، ربما صاحب المحل يعرفه ، يضربه عبد المقصود • يمزقه ، يرميه فى الترعة ، لن يدرى أحـد ، الحيرة تشـطره ، يزداد الضوء قتـامة ، والبرد ينفذ الى رئتيه ، غمامة كبيرة تزحف فوق البيوت ، يرفع عينيه ، تحتوى وجها مشوه الملامح ، جاحظ العينين ، كاد يعرف صاحبه ، لولا أن الريح أزاحتها بسرعة ، يخرج صاحب المحـل فجأة • يقول وعيناه محملقتان الى السماء : المطر لاينزل هنـا أبدا •

ناطق
الزمان

مفتتح

فى آخر الزمان ، يقـوم المهـدى المنتظر ، ناطق الزمان ، يجىء الى الدنيا بعد أن يبلغ آمرها حدا لا حد بعده ، انه يعيش فيها ، لكنه خفى لايبين ، وفى يوم معين ، لحظة بعينها ، قيل انها ساعة شروق الشمس ، يظهر ، فيراه أولا الصفوة ، ثم يعم * عندئذ ، يقوم جنده من كل مكان ، من فجاج الأرض ودروبها يجيئون، آمنين ، موحدين ، فيملك الدنيا شرقها وغربها . كمـا ملكها سليمان الحكيم ، وذو القرنين ، قال الثقاة انه لو

ظهر ثم اختفى ، وبقى فى عمر الدنيا يوم واحد ، لأطال الله عمر ذلك اليوم حتى يبعثه رب العالمين ، حينئذ تمتلىء آخر أيام الدنيا عدلا وسلاما ، من بعد أن ملئت ظلما وجورا ٠

جمع الكلمات

هدأ القطار سرعته ، انزلق سامى من فوق السطح الى فراغ مابين العربات ، قفز الى الأرض ، الهواء بارد . يقول ان الشتاء بانتظاره ، باع كل شىء من أجله ثم فارقه ٠ سامى نهار هجره الضوء ٠ فى الميدان حركة ليالى الشتاء ، أصدقاء يفترقون ، جنود عابرون، مواصلات تشح فتتقطع أوصال المدينة ، عليه أن ينتظر ، يبحث عن مولاه من جديد ، سيجمع الحروف يضاهى الأرقام ، ينبش ضفتى النيل بابرة ، وحتما يلاقيه كما قابله ، سامى الآن وحيد حتى مرارته ، بلا بطاقة شخصية ٠ نزع كل أوراقه ، ربما أذاقوه العزلة ، سجنوه ، وأين مخلصه لينقذه ؟ أين ناطق الزمان ، من يجمع كلماته ليوصلها اليه ؟ سيختفى فى الزحام ، يمضى الى أضرحة الأولياء ، بعينيه يسأل الناس عنه ، بارهاف آذنيه ، بالذكرى المتبقية ، يزور أمه ، يرثيها ، ينثر القرنفل الحزين فوق قبرها ،

يطلب منها أن تساعده ، يسألها كيف تجلى له ؟ رافقه، أضاع ماأضاع من أجله ، ثم غادره ‥ كيف ؟

أول الرؤية

ســامى لم يفه بحرف ، بالدموع كاد يبكى ، عاش اللحظــة الأولى ، رعشــة الميــلاد ، خروجه اليــومى الصباحى ، السماء زجاجية اللون ، سور باب النصر ، عربات نقل الرمال ، رآه قادما من ناحية جبل الدراسة، قرص الشمس يلمس حافة الصحراء ، كل شيء أعد ، ليس صــدفة أبدا ، رآه فى خفقات النهار الأولى ، فى اندفاق اللبن من اناء الى اناء ، ســامى يعرفه ، هــذا ماقرأ عنه ، قال مقتربا منه :

ــ أنت أنت ‥

فى الطريق يخطو الصباح طفلا واســع العينين ، رقائق هواء .

ــ لن تفارقنى ياســامى ، مادمت عرفتنى ، فلا يحدث هذا كثيرا فى الزمان .

أتركنى فى غرفتك ‥ آمض انت الى رزقك فأنا لست محدودا بمكان .

« يبدأ ميلاد سامى ، فكر فى اللهجة التى يواجــه

بها صاحب المتجر ، هل يتحدث اليه بأنفه وكبرياء ؟ أو بلا مبالاة ؟ كتم مافى نفسه ، لم يبح ، ستجىء لحظة معينة ، يدرك فيها صاحب المتجر ، وزملاؤه البائعون، والزبائن ، ماأدركه هو ، يعلمون أن سامي أول من اتبع خطى ناطق الزمان • فى المساء عبر كوبرى الجلاء ، تعاوده لحظات قديمة ، تدفق دما ساخنا طريا ، عودته الى البيت ، يعرف أن أمه بانتظاره ، أبوه سيصل بعد قليل ، خروجه لمقابلة هدى ، حركة يدها ، لون نظرتها ، رقة وجهها ، مشروعاتهما المشتركة ، تخيلهما شكل البيت الصغير المنتظر ، وقوفه أمام الهدايا ، يتمنى لو اشترى لها ، هذا القماش ، تلك الحقيبة ، يسرع الخطى ، يقابلها ، تضحك فرحة ، آه من حيرته فى ليل المدينة ، البيوت قضبان سجن ، أين يذهب ؟؟ يود لو يوقف أى رجل مار ، فقط يتحدث اليه • فترة مابين السابعة عشر وعامه العشرين ، بسرعة مرت ، لم يعشها ، أين راحت ؟ كيف ؟؟ كأنها ستعود من جديد ، فيض الآمال ، اعداد المشاريع ، لحظات ماقبل النوم ، الآن •• يعرف أن أيامه العطشى كأرض جفاها النيل ، ستنبض من جديد ، بكل ماراح ، ماضاع ، صوامع الغلال الفارغة المنخورة تمتلىء من جديد ، يشم رائحة التين فى الطريق الضيق المحفوف ، بمجرى

النيل فى قريته النائية ، يمشى مع أبيه · سامى لم يزر بلدته منذ سنين ، بعد اليوم ، لن تعصاه كلمة «لو» فى ميدان التحرير ، أمام محل يبيع الألبان ، تتصدره زجاجة لبن كبيرة ، آلة عصير مانجو ، مناضد ، همس شفاه ، قاوم نفسه ، آه لوصرخ ، يطلع فوق برج القاهرة ، يدور بهليوكبتر ، يشق فراغ مابين الأهرامات ، يعبر الكبارى الصغيرة المصنوعة من أخشاب النخيل ، يطوى مدقات الجبال ، يزعق ·· أبشروا ·· ظهر قائم الزمان ·· ناطق الزمان ·· جاء العدل والسلام ··

★★★

يطل من عينيه أمان ، آه ياأب اليتيم ، ياعائل الشريد ، يامنجى الغرقى ، نطق فارتجف سامى :

ـ أحسنت ·· لكل لحظة أوانها المحتوم ··

بينهما صمت شفاف نقى كماء الورد ، أصوات العصر تجىء من الحارة ، يسمعها سامى أيام عطلته بمفرده ، ثرثرة النساء ، نداءات الباعة ، يتأمل ايقاع أصواتهم وتنوعها ، «ياخس ياحلو قوى» · «أصلح بوابير الجاز» · «الوداع ياملوخية» · آوان بعيدة تسقط ، موقد يشتعل ، صفارة نائية ، مجهولة المصدر ،

رفع عينيه ، وجه ناطـق الزمان ، لايمكن من خـلاله تحديد العمر ، ربما قال ناظر ، انه مليح ، شاب ، ربما أكد مجرب حكيم ، آنها ملامح شـيخ جاوز الثمانين ، محير ، متى مولده ؟؟ هل لمثله أم عانت آلام المخاض ؟؟

ـ طالت رحلتى ٠٠ غدا يأتى طوال السنين ؟؟

الليـلة ، يتم سـامى عامه الثلاثين ، من منتصف الليلة ، ينحدر العمر ، آيام رمضان الأخيرة تقول آمه ، مانصـومه لن يتكرر ، آيام شـبابه آيضا ذابت ، قال ناطق الزمان انه سينزل الى العالم ٠ خفى ٠ واضح ٠ ظاهر ٠ باطن ٠ سيعرفه المقربون ٠ بصيته يزعقون ، الأمر فى هذا الزمان صعب ، عسير ، منذ مئات السنين انتقل بين القرى وآسـواق المدن ، عبر جبال الثلوج البعيـدة ، الطرق الصحراوية المؤدية الى الواحـات ، بعضها لاوجود له الآن ، لم يطلب منه آحـد تصـاريح سفر ، واذا استبد الفضول بمخلوق فهو طواف لايهدآ له قرار ٠

ـ أمـا الآن ٠٠ فالحـذار ٠٠ الحـذار ٠٠ كثر الأعداء ٠٠

سـامى الآن يشـم رائحة آبيه ، عودته كل ظهيرة بأقراص الطعمية الساخنة ، آمه تقعد آمام باب الحجرة،

ترتق قطع القماش القديم ، تصـلها ببعضها ، بتـأن تحاول ادخال الخيط فى ثقب الابرة ، سامى يشد ثوبها، تقول : اسكت ياسامى • اسكت ياحبيبى • قال ناطق الزمان ، ان الاعداء لاينتهون ، منذ آن طاردوه زمن الخلفاء الأمويين ، ثم العباسيين ، اضطر الى الاستتار فى بلدة صغيرة ، رقيقة ، كقصيدة شعر ، نائية فى الشام ، اسـمها سلمية ، منها انطلق دعاته ، غير أن الخـلاف دب بين الأتباع ، ظهـر أكثر من واحـد فى المغـرب ، فى الهنـد ، فى مصر والسودان ، ادعى كل منهم أنه هو ناطق الزمان ، لكنهم خابوا جميعا ، بقى هو مستترا ، سـامى ينظر الى مولاه ، يسـمع اقتراب الليل ، يرى أعـوامه الثـلاثين ، زمان •• زم أبوه شفتيه • فرح بنجاح ولده ، قال انه سـيبيع ما أمامه وما وراءه ، سيحمل حقائب المسافرين ، يقشر عيدان القصب فى مخازن محلات العصير • المهم أن يتم سامى تعليمه ، سامى دخـل الجامعة ، بالتحديد كلية الطب ، ربما جاء تعيينه طبيبا لمستشفى البندر ، يمتطى الحاج سلامة أغنى مشايخ البلدة ركوبته ،يمضى الى المستشفى، الثقة تملؤه ، الطبيب هو سامى ابن هارون القط ، أى والله هارون عرف يربى ، يقول سامى :

ـ يمكنني أن أعمل لأساعدك .. وفي نفس الوقت ..

يصيح أبوه : أبدا ، أبدا .

همس سامي وعيناه تحتويان ناطق الزمان :

ـ أينما ذهبت تتحقق الأمنيات . لن يتحسر انسان .

يقترب الغروب ، لايطيق سامي البقاء في حجرته، كل مايراه ، يتدفق اليه . حزين . يفصله عن العالم بحر صعب العبور ، مولاه يتمتم بأدعية تنأى بالوحشة، أصابعه تمسك طرف ردائه الأبيض ، في أي عصر نسج ، من أي قماش هو ؟؟ قال ان غربته لن تطول ، لن يرى أكثر مما رآه ، هنا في مصر منذ أربعمائة وسبعين عاما ، قبض عليه العسس ، ظنوه من العربان المفسدين ، رموه في سجن الجبل ، قضى فيه مائة عام ، وازدادت تسعا ، تعاقب عليه أجيال من الحراس ، استسلم للقضاء ، أليست عذاباته بعض مما يجري في العالم ؟؟ كاد سامي يبكي ، يسمع نواح أمه .

ياليتني قبلك .

طفشت في الحارة ، تشد ثياب النساء ، تهيل التراب فوق شعرها ، تعض نفسها ، تقول للرجال

العـابرين . راح أبو سـامى . راح من يعولنا . راح رجلى . من يعولنا ؟؟ رجلى ؟؟ ألفاظ توجع سامى ، ينزل ثقل فى دمه ، تعريشة الأسرة انكسرت ، الدفة التوت ، الربان هوى فى قاع اليم ، النخـاع انسـل هاربا من تجاويف العظام ، طوال شهور تلت ، أمه تلقى أحزانها فوق أمور صغيرة وقعت ، لو أنه لم يذهب الى أقاربه فى مصر القديمة لعاش ، لو أنه رأى اختـه نظلة ، راح محسورا لم يرها ، لو أخذ اجازة ، لم يعرف الراحـة أبدا ، لكن مانسبة هـذا الى مارآه ناطـق الزمان ؟؟ عذابات الكون منذ أن كانت الأرض صخرا ملتهبا ، ثم نبات وحشى خـال من الانسـان ، الآن الليلة ، تولد الآمال ، تمتلىء الوديان خضرة ، تمطـر السـماء فى أفواه المحتضرين عطشا .

★★★

ــ اذن .. أنت تعرف اليوم الذى رحل فيه أبى ..

ليس هذا فقط ، انما يعرف رعشة قلبه عنـدما عرف هدى ، لحظة مجيئها الى المتجر تشـترى فسـتانا بسيطا ، تلاقى عيونهما ، ادراكه مرفأ الحنين ، مـولاه يعرف طوافه الليلى ، هدى موجودة فى كل فتاة عابرة، تطل عليه من مكان خفى ، معه دائما ، يتخذ فى جوف

الليل قرارا ، أن يمشى من الحسين حتى كوبرى الجلاء ، يقف عند الحد الفاصل بين محافظتى القاهرة والجيزة، يتأمل أضواء العوامات الخافقة ، دوامات التراب الصغيرة والورق ، يلفظ اسمها قرب الفجر بصوت عال ٠٠ هدى ٠٠

ــ مادمت أتبعك ياضيا عينى يامولاى ٠٠ فلن أقطع الأمل فى رؤيتها ٠

هز الامام رأسه ، ضوء الطرقات هامس ، تنذر السماء بهلاك مجهول ، رآها الامام منذ ألف سنة ، ترى ، ماذا جال بعقول أهل الأزمان البعيدة ، وهم يتطلعون الى السماء ذاتها ، ما آثارته كل لحظة من أحلام ، الهمس المتبادل ، ناطق الزمان عرف الغروب فى قرى الهند الفقيرة ، رآه فى الاحساء ، فى نجد ، بين ربوع الشام والأناضول ، بلاد القفقاس ، بحر الزنج، والبحر المحيط ، تجاوزا شوارع الضجيج ، خرجا الى الخط الحديدى المار قرب الحقول ، المطار الصغير ، الأنوار الزرقاء على جانبى الممر ، تنفذ رائحة الليل ، أنفاس الزرع ، الوقود المتساقط بين القضبان ، المولى يتطلع ، يكشف حجب المستقبل ، يرى مبدنا أخرى

منثورة فى أركان العالم ، جزرا صغيرة يسكنها الأعراب والصيادون ..

البحث وراء التعابير

المراكبية لايأخذون معهم أحدا ، لكن ريس هـذا المركب عندما رآهما أفسـح لهما مكانا رحبـا ، قال لناطق الزمان ، انه انتظره طويلا ، عند المنحنيات الحادة فى المجرى ، فى جرى الموج ، راح يغنى ، لصوته رائحة أرض الشراقى ، المتشوقة الى الماء ، يذكر امرأة بعيدة وعيالا صـغارا ، يذكر مـذاق البتاو البيتى ، الحليب الصباحى ، رائحة خبيز الظهيرة ، رحلته تستغرق شهرا كاملا ، ينقل الحبوب ، الغلال ، أوانى الفخار ، سامى يرقب خطو الليل ، الليل لاينزل من السماء ، انما يطلع من النيل ، من الضفتين ، من هسيس الحشرات ، ذرات الغبار التى تثيرها أقدام المارة فوق الطرق الريفية ، يترامى اليه تصفيق وغناء ، ربما فرح فى قرية نائية، تـدوم الريح فتطوى الزغاريد وطلقات الرصـاص ، ناطق الزمان يغوص فى طبقات الظلام بعينيه ، آينما ذهب يدركه البعض ، يجهله آخرون ، أو يتجاهلون ، ربمـا أدركهم الأعـداء المترصـدون ، فى كل مكان ينتشرون ، قال الامام انهم فى البحار الكبيرة ، فـوق

ثلوج الجبال ، فى ناطحات السحاب البعيدة ، فى الآثار القديمة ، فى المصارف ، قواديس السواقى ، تجاويف الطنبور ، بين آلات القطارات ، حول أذرع السيمافورات ، فى أروقة المستشفيات ، فى الابتسامات الصفراء ، ارتعاشات الجفون ، لو عرفوه لانقضوا بحقد ، عمره آلاف السنين ، يتوارثونه ، سامى يضيع فى رهبة الليل ، يصغى الى نبض العالم ، لايعرف كم انقضى عليه تابعا لمولاه ، شهور ، سنين ؟ توقف عمره عند الثلاثين ، يبدأ من جديد ، أعوامه البعيدة المنقضية بسهولة قاسية لاتصدق ، كأنها سنين غيره ، من يدرى ، ربما لو مد البصر عبر النيل ، يلقى طفولته ، شبابه ، حارة البيرقدار ، وقفته يبيع الثياب ، مساومة الزبائن تغير النهار خارج فترينة الزجاج ، ليس معقولا أن ما انقضى ضاع تماما .. لابد من وجوده فى مكان ، زمن ما ...

★★★

يرتعش صوت الشيخ العجوز ، ناظر مدرسة ابتدائية ، قال انه رأى تباشير الأمل فى انطلاق النهر كل عام ، فى اكتمال القمر بدرا ، قال ناطق الزمان انه لايجىء بالخوارق ، لكن شيئا فشيئا يدرك العالم

الحقيقة فيقوم قومة رجل واحد ، سامى ، يقف عند آخر بيوت القرية ، حافة الصحراء ، يدوس بقدم فى الخضرة ، وقدم فى الرمال ، فى سكون الليل يحكى الشيخ عن رجال ماتوا بعد انتظار الامام طوال حياتهم، كثيرون خرجوا يبحثون عنه ولم يرجعوا ، توهج فى السماء نجم وحيد ، ليست المرة الأولى التى يجىء فيها الى هنا ، منذ مائة عام قضى بمصر زمنا ، ظهر فى كافة قراها ، نجوعها ، لم يأمن أعداءه كهذه الفترة ، يظهر فى أسواق القرى ، يتحدث الى باعة السمك المقلى ، وقطع البطيخ ، بالضبط قبل انكسار عرابى ، توالت الأيام ، تحسس وقع الهزيمة ، وبدأ الحزن يفاجئه ، لم يهاجمه سنين سجنه الطويلة ، ياه ٠٠ لايضارعه الا حزنه العظيم كلما تذكر موت الحبيب ، المنجب النجيب، ابن بنت رسول الله فى كربلاء ، فى كل عام ، عاشر محرم يقيم حدادا يكاد يهلك فيه ، لكن الحذار ، لو قضى لن يقوم أبدا ، لن يعرفه أحد ، أبدا يضيع ، اختبأ فى ثياب الفقراء القتلى كما اختبأ من قبل فى جراح ضحايا المغول بخوارزم ، انطوى مكتئبا ، فى فوهات المدافع المنطفئة ، ناءت أعضاؤه بالهم فاستتر ، لو أمسكه الأعداء لمزقوه قطعا أكبرها فى حجم الحبات الرفيعة داخل ثمر البامياء ، غير أن فلاحا عجوزا من هذه القرية

عرفه ، تحسس سامى بعينيه البيوت فى الظلام ، ربما نام الفلاح الفقير فى بيت من هؤلاء ، ربما طبع آثـر قدميه فوق التراب الذى يطؤه سامى الآن · اقتفى الفلاح خطوات الامام ، اقسم الايمـان ، وأخـذ على نفسه المواثيق والعهود ، لن يعلن حقيقة الامام لأحد ، انهما غارقان فى زمن الهزيمة · الفرحة غاصت من القلوب، أما الحـزن فيثقل الجميع ، شاب الأطفـال ، قال ناطق الزمان ، ان هـذه الأيام البعيـدة ذكرته بأيام أكثر بعدا ، عندما دخل سليم العثمانى أرض مصر ، ولعب سيفه فى الرقاب ، فكاد ينهى الحى بها ، عندما اندفع المغول عبر بغداد ، واجتاحوا الشام فى أيام ، رأى فى الأعداء رجالا من قبائل الهون البربرية القديمة ، أعوان تيمور لنك ، الأسبان الغزاة ذابحو هنـود الازتيك ، محاربون متوحشون يأكلون لحم الانسـان ، ارتعش سامى ، يكاد يسمع وقع سنابك الخيـول ، اصـطدام السـيوف بعظام الجبـاه ، قال ناطق الزمان لابراهيم الفلاح العجوز ، ربمـا لاترى تحقيق الآمال ، تمـوت محسورا ، أصر الرجل على صحبته ، زعق مناديا ربه ، عند قرية «شطب» جنوب أسيوط نسى أهله وماله ، ناطق الزمان أبوه ، كفنه بيديه ، صلى عليه ، يومها تبللت السماء بمطر ، ناءت بحمل غيوم ثقال ، زعق الناس

فى الصعيد ، أهذه نهاية الزمان ؟؟ أحرق الجثمان ، نثر الرماد فى أركان العالم وزواياه ، ابراهيم العجوز تبعه حتى النهاية ، لم يعرف اليأس ٠٠ بكى ناظر المدرسة ، العارفون به ، الذين جاؤوا من القرى المجاورة ، طافوا معه البيوت ، يكاد سامى أن يرى الفلاح العجوز ، ابراهيم الراحل منذ مائة عام ، ذهب ولم تتحقق الأمنيات ، أما هو ، سامى فكل شيء يراه دانيا ، يدخل الجامعة يصبح طبيبا ، يسمع صوت هدى ، هدى الآن قريبة منه ، تقول :

ـ مرور سنوات لايعنى شيئا ٠

تقلب السكر فى كوب الكركديه الساخن ، لحظات صمتها فى أذنيه حديث متصل ٠

ـ اسمع ٠٠ نبدأ معا ٠ نذاكر دروس الانجليزية ٠

لايرد ، تتدفق فى صدره رغبة ، يحتضنها ، يذيب فوق صدرها حزنه ، ارهاق أيامه ، يرقص فوق منضدة الرخام ، يثب فرحا ، يهدأ ، ينفى آلامه ، آه لو يزعق فى الناس ، تفيض عواطفه ، تعبر ضلوعه ، ولا عاصم بعد اليوم ٠

ـ لن يستغرق الأمر سنة ٠ تعيد دخول الامتحان ،

وألحقك انا فى الجامعة • ليست رغبة آبيك •• انهـا رغبتى أنا ياسامى ••

ينطلق سامى ، تتبدل الأشـياء ، يرق الهـواء ، يقول :

ـ هدى انت رائعة •• انت ملاك ••

ـ ياسلام ياسامى ••

تضـيق مابين حاجبيها ، يمتلىء الفـراغ بينهما بالآمال ، تبدو له سنين عمله القاسية وهما ، اسراعه ليلحق مواعيد العمل ، الوقوف النهـارى الطـويل ، ابتساماته للزبائن ، لم يعرف هدى خلال هذه الفترة ، كانت تعيش فى مكان ما ، قبل آن يعرفها ، يفكر ، لابد أنـه سـيلتقى بانسـانة تعيش الآن فى منزل معين ، تتحدث ، تأكل ، ترى من هى ؟ تبرق عيناها فى ذاكرته، فى اتساعها يرى البلاد التى تمنى السفر اليها ، البيوت المغلقة فى الشتاء ، داخلها آصـوات الشارع البعيد ، زعيق السكارى ، هـدى تحمل صـينية فوقها آكواب الشاى الساخن ، بين يديه كتـاب ، فى آنفـه رائحة الأثاث البيتى ، تسأله عما يحب آن ياكلاه غدا ، تتصل به فى العمل ، تدعوه الى غذاء خارج البيت •

ألا تذكر • اليوم عيد زواجنا الثالث •

تحلق ذقنه كل صباح ، تميل تغسل ماكينة الحلاقة، يخطف منهـا قبـلة ، يحتضنها عنـد وقوفهـا أمـام البوتاجاز .

ياسلام ياسامى . حاسب الشاى .

يدعوها الى السينما ، يمضيان معا ، يسمع صلاة ناطق الزمان ، حديثه الى مريديه ، تضحك هدى ، يبعث أبوه حيا ، مورد الوجه ، فرحا ، لا أثر لشقاء السنين حول عينيه ، ينفض الغبار عن لافتة مدرسته القديمة، تعود طفولته ، آه ماأقسى استرجاع الطفـولة ، يأكل كشرى الحاج عبد العاطى ، يفرح لمجىء يوم الخميس ، يعقبه الجمعة . أجازة ، يسمع قبقاب أبيه العائد من صلاة الفجر ، يفرح فى لحظات الهدوء بين أمه وأبيه ، يعاكس الحـاج حامد مـدرس الرسـم الذى يقف فى الفصل ، يتأكد من اغلاق الأبواب والنوافذ ، يتطلع اليه الصغار ، يقول .. اسمعوا ياأولاد .. اسمعوا غناء عن مصر .. عن مصر يااولاد ، يحمروجهه ، ينظر الصبية الى بعضهم ، يتضاحكون ، يستمر غناء الحاج حامد ، الآن ، يذكر مذاق صوته ، يكاد يبكيه . يتحدث الناظر ، والخفير ، والرجال .. لكن لابد من مواصلة الرحيل ..

★★★

ــ أرى دبيب أقدامهم · أشعر بانتشارهم ·

أدرك سامى خوف ، صاح طائر غامض فى الفراغ العتيم ، هل يجرؤ انسان ؟؟

ــ أنا لايدنو منى أحد · عنـــد الخطر استتر من جديد · أذوب فى الصخور ·

ألجأ الى الكهوف الجبلية · أغوص في عروق النحاس فى قاع منجم بعيد ·

غير أن الأمنيات تشل الى حين ·

سامى يهوى ، تصدمه أرض مجدبة ، يسفح عمره عند أفق المغيب ، تعــود اليه لحظات احتضـــار أبيه ، رحيل هدى ، احترق قلبه يومها ، ما الذى جرى ؟

ــ متى يجيء الأوان الذى لابعـــده ولا قبله أوان يامولاى ؟

ــ ربما بعد شهر · بعـــد سنة · علم هذا عنـــد ربى ·

لو يزعق سامى ، يعبر صوته الهواء ، يجفف صديد العيـــون ، يدور مع ســـيور ماكينات الطحين ، أبراج الكهرباء ، الجمال المثقلة بالبوص ·

ــ يكون عمرى انقضى يامولاى · لاآسمع هــدى أبدا · آيرضيك آلا آسمع هدى · لاتعود من الحجاز · لا أراها بكرا من جديد · لا أدخــل الجامعة · لاأداعب طفلى الصغير واسع العينين · طرى العظام ·

زعق ريس المركب ، يلتوى القلع التواء حــادا ، يخف السواد ، يفصح النهر عن ملامحه ·

ــ نشقى من أجل الأجيال المقبلة ياولدى · ينعم أهلها ، يشربون اللبن من النهر ، يطــرح نخيلهم خيرا وطمأنينة ، يأوون الى مضــاجعهم آمنين · الغــرباء المفزعون فى سواد الليــالى ، يرق هــواؤهم ، يصــفو ماؤهم ·

ارتجف ســامى ، آين آنا عنــدئذ ؟ آين مــوقع قــدمى ؟ آى آحجــار تثقل رآسى ؟ الظلمة تغشى عينى جمجمتى الخاويتين ؟ آحلامى تتجمد فى آربعة وعشرين ضلعا ، عمود خال من النخاع ، رسغان وساعدان ، كل ما أصبوا اليه ، أين أنا حينئذ ؟ أين أنا ؟

★★★

يخوض مياه النهر الضحلة صياد عجوز ، يغرس حربة رفيعة مدببة فى ظهر البلطى والبياض ، سامى يتأمل قدمى الرجل ، منتفختان بالرطــوبة والطمى ،

أخبرهما أن القوارب تزحم النهر ، صغيرة سريعة ، في كل منها رجلان ، يوقفون المراكب الكبيرة ، يفتشون أواني الفخار ، ينبشون أجولة القمح والبلح ، حتى الآلات الصغيرة المرسلة في الصنادل ، يفكون تروسها ، لم يبد على الرجل أنه عرفهما ، أيضا لم يتضح هل يجهلهما ؟ لكن ما الذى دعاه الى اخبارهما بهذا ؟ عاد صامتا يخوض في الماء الضحل ، نظر سامي الى مولاه ، لطالما أطبقت عليه جبال أعلى من هذه ، صخورها أقسى، يعرف العالم شبرا شبرا ، وأرض مصر ، يعرف أى نتوء حجرى عند مدخل سمالوط ، التمثال الأثرى القديم قبلي جهينة ، الغرف التحتية في البناء المشيد قبل الطوفان ، حيث الجو رطوبة في الصيف ، دفء في الشتاء ، يعرف المصانع ، مواعيد تغيير الورديات ، صوت مدفع رمضان في دمنهور ، السويس ، صوته في قنا ، يحملق الى فراغ بعيد ، ربما يرى أشياء لايراها هو ، سامي توجعه خواطر مفاجأة ، ربما يعلو أزيز طائرة ، تطل منها عيون فاحصة ، تكشف المخبأ من الآمال ، يمسكون ناطق الزمان وتابعه الأمين .



جنود اللورى عند المدينة الريفية الصغيرة ، بكاء

أحدهم على صدر الامام ، أسمر الوجه يتوسـط ذقنه وشم أخضر ، مستدير ، باهت ، رآه من زمن ، كان مادة أحلامه ، والصور التى تخللت آيامه ، انه من الأنفوشى، يمتلك دكانا صغيرا يبيع فيه الفول والطعمية ، رآى الامام فى صباه ، فى كل تجويف يفصل بلاط الرخام الصغير الذى يرصع دكانه ، فى مرض آمه وشفائها ، انتظره عند ساحل البحر ، فى آبى قير ، فوق الصخور ، لاشىء ، انما صخور وحشية ، مقطبة الجبين ، تلتقى التقاء صريحا بالسماء والبحـر ، لم ينله يأس ، حتما ينطق الزمان ، من زرقة المياه ، من ملوحة طعمها فوق الشفاه ، من الطوابى القديمة ، مواسير مدافع عرابى الملقاه برثاء ، آه يامولاى .. جئت ، وأين ؟ هنـا ، ارتجف اللورى ، لانت ذرات الرمـال ، مالت عيـدان القمح ، ابتهل بقية الجنود ، دمعوا ، نزلا من اللورى ، تساءل سامى ، هل يراهم ثانية ؟ محمد ابن الانفوشى ؟ حسين نساج الكليم من فوة ، عبد الهادى عامل الآثار الصعيدى ، السائق النوبى ، قال ناطق الزمان : حتما سيرجع ، يلقاهم . هو موجود حتى لو استتر ، فوقهم ، حولهم ، لاتبعده عواصف ، لاتقصيه صفارات انذار أو دوى .



« لماذا لم يقل لهم أنه ربما عاد بعد ألف سنة كما أخبرني ؟؟»

بماذا يجيبون لو عرفوا أن الأعمار ربما انقضت فى انتظاره ؟ استعاذ سامى بالله ، يعرف أن الأعداء يطرقون الوسائل كلها ، ربما بذروا الشك فى حقل روحه . توجهوا الى الحجاز ، ذبحوا هدى •• يحضرون دمها الحبيب اليه ، يرمونه على عينيه فيضيع منه البصر ، يقطع من رجوعها الأمل ، شربهما الكركدكه ، همسهما الخفيض ، توقفهما أمام فتارين الآثاث ، متاجر التحف ، تقول هى ، لابد أن يحتوى الصالون على فازة صينية ، تمثال محارب زنجى ، ترى الأطفال الصغار المصنوعين من الشمع فى متاجر الثياب ، تهمس ، أنا أحب الأطفال ، يخجل ، يتحدد الحديث ، تطلب بنتا ، يتمنى ولدا ، يكتفيان لاأكثر ، أما اذا جاء الأول ولدا والثانى ولدا والثالث ، تضحك هدى ، لابد أن نصر حتى تجىء مديحة ، يسأل : لماذا مديحة بالذات ؟ لأنها تحب خالتها جدا ، هى أمها التى لم ترها ، لم تعرف الا هى منذ الرضاع ، يتساءل سامى : هل تذكر هدى بين جدران بيتها المغلق ماقيل ؟ ربما أنجبت ابنة الآن ، حجازية الجنسية ، هل اسمها مديحة أيضا ، السماء

خاوية ،صحراء فى عينى سامى ،الذكرى تلون الأشياء. تنأى بالامام عنه ، يفيق الى وجوده ٠

★★★

ـ لابد أنهم يسدون مفارق الطرقات ٠ يختبئون فى عربات الرحيل ٠

يكاد يحس لون نظراتهم ، قسوة خوذاتهم المكسوة بشباك التمويه ، الهلاك فى أسلحتهم ، تهب ريح عاتية، السماء حـزينة ، الأرض تقلع ويفيض الماء ، سكت الامام لحظة كالسنين ، ثم قال انه يعرف دربا صحراويا غرب قرية الغنـايم ينتهى فى صـحراء السودان ، لم تطرقه قدم انسان منـذ مر به يتبعه ابراهيم الفـلاح العجوز ، يمضيان فيه ، يخرجان شمال أسوان ، خطت قدماه فوق الحصى ، رق الغمام ، غير أن شيخوخة غريبة، زحفت فى عروق سامى ، لكم أحس بقصر عمره ، فى مقهى الكلوب العصرى يطوف رجـل ضخم ، يرتدى معطفا جلديا ، فوق ظهره رسم لوحـه أحمر ، مشوه الملامح ، بارز الأنياب ، لايدرى أهو لجن أم انسان ؟؟ أربعة شهور ، فى كل يوم ، نفس الميعاد يجىء ، يضع بطاقة صغيرة فوق منضدة الرخام ٠

« اقرأ الكف ، حاضر ، مستقبل ، أحلام ، أمنيات سيد سعيد » •

يهز سامى رأسه ، يمضى الرجل ، حتى استبد الفضول بسامى ذات مساء ، شد الرجل كرسيا ، بسط سامى راحته ، ضيق الرجل عينيه ، آسند رأسه الى يده، رأى سكة السفر ، وضيقا فى العمل ، ومرضا فى الصغر •

ــ لكن عمرك قصير • ولو عشت مائة سنة •

ماذا يقصد ؟؟ أى شىء يعنى ؟؟ لكنه قام ، دس بطاقته فى جيبه ، طلب خمسة قروش ، فى هذا الوقت لم يمض على سفر هدى آسابيع ، هجره النوم ، راحة عقله متعة نائية ، لايدرك صاحب المتجر ذرة من همومه ، آما الزبائن فيشيرون ، آعطنا من هذا ، لا •• من الأحمر ، اقطع آربعة آمتار ، لاداعى ، نلف ونرجع ، يشرب الماء تسبقه الأقراص المنومة ، حكى لناطق الزمان عن عذابات الليالى ، سهره حتى مجىء الرجل العجوز مجدوع الأنف ، فى الفجر تماما يصيح : «يانايم قوم وحد الدايم •• بكره تقوم القيامة •• وينصب الميزان ، يبقى اللى وفى يعدى • آما الشقى حيران» يدرك آن يوما انقضى ، يزعق الرجل ، تبقى

النوافذ مغلقة ، من عشرين سنة ، اذ يقترب الفجر ، يصيح رجال الحارة على بعضهم ، الحاج حنفى جساس البهائم ، يدس يده طوال النهار فى الأرحام ليعرف الأنثى المقبلة من الذكر ، يصيح على سعودى الجزار ، سيد الترزى ، على المكوجى ، ينادى أبوه ، فى دفء فراشه ، يسمع وقع القباقيب فوق بلاط المساكن ، اندفاق المياه من الصنابير ، تجمعهم فى الحارة ، عز ليالى الشتاء ، يمضون الى الحسين ، أصواتهم عالية ، تبقى معلقة بين البيوت زمنا بعد ذهابهم ٠

★★★

آه لو يسأله سؤالا واحدا ٠ هل ينوى الاستتار عنه ٠ الاستتار عنه هو ؟ هو الذى ودع كل شيء ، لايجرؤ على نطق الكلام ، يردده عقله ، فى خطوه فوق الرمال القاسية ، تحت انصهار الشمس الذى يزرع العوسج فى العيون ، يعرف أن الامام يدرك مافى خاطره ، عالم بكل شيء ، قرأ كل ماجرى وماسيجرى فى كتاب الجفر الذى تركه الامام على ، فيه رعشة الأمل ، خفقة القلب ، هم الفكر ، فرحة الغريب بالعودة الى دفء البيت ، آه لو يجيب حيرته ٠ يفك ضيقه ، يلملم عذابه ٠ لكنه لم يفه بحرف ٠

ماذا يفعل بدونه ؟؟ يسحقه يأس مخرب كالغزاة ، لحيته طالت ، ملامحه تغيرت ، قبل رحيل أبيه ، موت أمه ، قبل حدوث شيء مخيف ، تمر به لحظات يتجسد فيها ماهو متوقع ، عند خروجه من سينما الكواكب ، عودته الى البيت فى منتصف الليل ، يرى اللحظة التى تموت فيها أمه ، بكل سوادها الذى ينزف دما ، عندما رحلت رأى أن الموقف غير جديد عليه ، الآن يهوى قلبه بين ضلوعه ، يرى لحظة يخافها ، استتار الامام ، احتجابه عنه ، هل يقتل نفسه عندئذ ؟؟ وهل هذا سبيل للعثور عليه ؟؟ الآن يجلسان أمام كشك صغير داخله عجوز نوبى ، يحرس ملايين الأطنان من الطفلة المنتزعة من المنجم القريب ، مهجور منذ شهور ، لكن من يتوغل أربعين كيلو مترا شمال أسوان فى الصحراء ليسرق حفنة حجارة أو طن حتى ؟؟ الصخور تغرقها ، تتخذ أشكالا غريبة : وجوه آدمية ، سيوف مشرعة ، بيارق مكسورة ، فيها يرى كل شبر وطئه مع مولاه ، القرى ، الآمال فى العيون ، بلاد الأفغان النائية التى شرعا فى الرحيل اليها ، الهند ، البحار الجنوبية ، سفن صيد الحيتان ، رائحة العشب فى الغابات ، قرقرة

النرجيلة فوق المصاطب ، تطلع الحراس فى بطاقات الغرباء ، فى الصخور عيون واسعة قاسية فارقت رؤوس أصحابها ، ناطق الزمان صامت ، لماذا ؟؟ لايتحدث عن جيوش الأعداء التى رآها ، أو غضبة الأرض ساعة الزلازل ، الفيضانات ، الأوبئة تكنس البشر ، يسيح بعينيه عبر الأفق ، أيكشف حجب المستقبل ، ربما ضاع منه كتاب «الجفر» الذى يحوى كل شىء ، من بعيد يحبو عويل قطار ، يفاجئه حنين المسافرين ، شعور الغربة المكثف لحظة عودة الأسرى ، لماذا يسكت الامام ؟؟ لماذا يطل الحرمان من جديد ؟؟ يكاد يصرخ ، يطلب منه أن يصارحه بما ينوى ، أما الحارس النوبى فينظر اليه ولها خاشعا ، كأنه قضى فى رفقته العمر كله .

★★★

قال ان عربة لاندروفر ، تتجه الى أحشاء الصحراء ، ركابها أربعة ، يحملون أسلحة ، وآلات تصوير ، قبعاتهم تقيهم الشمس ، تابعها ببصره حتى اختفت وسط أعمدة الرمال الناعمة التى ترتفع من الأرض لتتصل بزرقة السماء ساعة الظهيرة ، تمطى فى الفراغ عواء ذئب ، قال الحارس العجوز ، كأنه يقدم

تقريرا مفجعا ، ثمة طائرة حومت الى الشرق ، جرادة
ضخمة ، يظن البحر مقصدها ٠

★★★

سامى يرى نفسه الآن مصلوبا ساعة مغيب ، ينادى
الامام أن يظهر ، يعيد ما انقضى ، كان كل ليلة يمضى الى
مقهى مصطفى درويش بميدان الحسين ، يشرب الحلبة ،
ينظر البنات المسرعات الى بيوتهن ، يرى رجلا مجذوبا
يلف حول رأسه عمامة حمراء فى لون الدم ، يلبس
جاكتة عسكرية عليها شارات ونياشين ٠ تجاورها أغطية
زجاجات البيرة ، البيبسى كولا ، يرفع سيفا خشبيا ،
يترصد أعداء يراهم هو ، يطارد آجانب خان الخليلى
اذا ماحاولوا التقاط صورة له ، صار يقف فى الميدان ،
لحظة الغروب ، ينادى الليل آلا يقبل ، والنهار آلا
يرحل ، يرميه العيال بالطوب ٠٠ «بلعو ٠٠ بلعو ٠٠»
عند حارة الوطاويط رآه دامى الوجه ، يمسك احدى
أسنانه بيده ، أى بشر يدنو منه ، هو عدو يبغى رأس
الحسين بسوء ، سامى الآن يرى عنقه فى قبضة جندى
يسوقه الى غرفة الحجز فى قسم ، يلقيه بين اللصوص
فى غرف الحجز ٠ يسألونه لماذا جاء ، أى تهمة ؟ بماذا
يجيب ؟ لايأخذه يأس ، يفتش تحت أخشاب الحجرة ،

وراء طلاء الجدران ، فى القضبان التى تسور العمر ، فى غرف التعذيب ، فى اللوريات الرمادية المغلقة ، تأتى امرأة سجين تناديه من الطــريق ، يتعلق السجين بقضبان النافذة ، تحكى له عن أخبار العيال ، ذهاب أخيها الى المحامى من أجله ، أمه بخير ، سيجذب سامى الرجل ، يتعلق بدلا منه ، يسأل المرأة ، عابرى الطريق عن مولاه ، آه ، يترقرق الحزن فى عينيه ، يرى نفسه معتقلا ، أو نزيلا فى مستشفى للأمراض العقلية ، ولو .. سـيبحث عنــه ، ربمـا تخفى بين النزلاء ، فى الأشجار الجرداء ، فى ذرات الرمال المرشوشة بالبول ، كل صباح يكتب خطابا الى هدى ، ينتظر مجيئها فجأة، تطبع أثر قدميها فوق الأرض التى مشيا عليها من قبل ، لكن .. لو ألقاه الأعداء فعلا وراء الأسوار من يزوره؟ من يحمــل خطــاباته ليلقيها ؟ من أين يأتى بطــوابع البريد ؟ روح أبيه تحوم حوله ، يرى أمــه وهما عند أشجان الفجر ، آه لو يقول كلمة ، صمته يلوى روحه ، يفيض أسياخا محماة فى قلب ســامى ، لو كلمــة ، آه ياناطق الزمان ياامام ، العمر الطويل تمهيد للحظات الصمت هذه ، أهكذا .. ببســاطة حادة مرهفة كحد السكين .. أهكذا ؟

خراب الجسور

(١)

« .. عندما سمعت صوت آختى «سنوات» . على الطرف الآخر من التليفون تعجبت ، تساءلت عما جرى، لاتحدثنى هنا اطلاقا ، تشير الساعة الى تجاوز الثالثة والنصف ، بدا صوتها بعيدا مما آجهدنى فى التقاط الألفاظ .

ــ من أى مكان تتحدثين ؟؟

ــ تحت البيت .

ــ بيتنا ؟؟

ــ طبعــا . من الاجــزخانة . بــاقى لك وقت طويل ؟؟

ـ حوالى أربع ساعات ٠٠ ثم أذهب الى الكلية ٠

ـ هل جرى شيء ؟؟ ارفعى صوتك ٠

ـ أنا مصرة ناكل معا ٠ أتمنى الحديث اليك ٠ من مدة كبيرة لم نقعد على مائدة واحدة ٠

ـ لابد فيه حاجة ٠

ـ أبدا والله ٠ نفسى أتكلم معك ٠

ـ لكن ٠٠

ـ ولايهمك ٠ أقضى شغلك ومهما تأخرت ٠ أنا منتظرة ٠

لم أرها أثناء الحديث ، لكن صوتها ، تدفق الكلمات ، أوحيا بالبهجة التى تزحم روحها ،رأيتها تقف ، تحيط بوق السماعة بيدها ، صوتها خفيض ، تشب على أطراف قدميها ، تقطب عينيها اذ يرق حسها ٠ « ٠٠ نفسى أقعد واتكلم معك ٠٠» تختلف مواعيدنا ، تضمر أوقات لقائنا ، تقل مرات أحاديثنا ، أول النهار لا ألمح الا آثار عملها المبكر فى البيت ، نظافة الصالة ، افطارى فوق الصينية الخضراء المنقوشة بورود حمراء ، أطيل تأملها ، ومتابعة فروعها المتشابكة ، طبق فول ، بيضة مسلوقة ، ملح ناعم

مخلــوط بفلفــل ، آكل بسرعة ، لا أنظف الأطبــاق ، «ســنوات» تنفض الغبار عن الكتب ، تلملم الملابس ، تخصص يوم الثــلاثاء للغســيل ، تنهى كل شيء قبــل وصولى ، أعود متعبا ، يضج النهــار فى رأسى ، زحام عربات وعرق ، وبحث فى أدغال القواميس عن معان مبهمة ، ألوذ بفراشى الضيق فى ساعة متأخر ، أســمع خطواتها الخفيفة ، تلامس مشــاية اللوف فى الطرقة ، تطل على ، تقف بباب حجرتى ، عينــاى مفتوحتــان ، لا أتحرك ، لا أنطق حرفــا ، أخبىء يقظتى ، أضيــق بحروف خفيفة قــد نتبادلها ، تصغى ، ربمــا الى وقع انفاسى ، تتراجع على مهل مخلفة همسا من رائحتها فى الغرفــة ، اســـتعدت ملامح صوتهــا ، «نفسى أقعــد واتكلم .....» أى مناســبة أو حدث ؟؟ فى زحــام حياتنا تفقــد المناســبات أجهل يوم ميــلادها ، أعرف ابريل لكننى لا أدرى اليوم ، لا نتبادل الهدايا ، توقفت عن ترجمة البحث ، مكاتب الصــاج مصفوفة أمامى ، فى السـقف تدور المروحة الكبيرة على مهل ، أى جدوى لهذه الدورات ؟؟ الحــر يتمدد فى الفــراغ ، استعدت هدوء البيت ، صورة أمى وأبى ، تطل علينا من اطار كبير ، طرقت صاج المكتب بقلمى ، «.. نفسى أقعــد واتكلم ...»

(٢)

بدا الليل غطاء كثيفا من غربة وارهاق ، أرى ذرات الفراغ ، عاط بوق عياطا متصلا انقطع فجأة ، أى أمور شغلتنى ، أضعت حديث «سنوات» منى ، أى واقعة بالتحديد ؟؟ خروجى من المكتب ، تحسس جيوبى بحثا عن دفتر تليفونى ، ضيقى وعودتى الى الكتب ، اخراج مافى الأدراج ، فض المظاريف ، ثم يبرق خاطر كطلقة • افتح الحقيبة • آتناول الدفتر ، آقلب وريقاته، أضمه فى جيب قميصى ، كيف نسيت ماقالته ؟؟ بعد المحاضرة الثانية ، وقوفنا فى الطرقة آمام المدرجات ، مجىء مجدى يقضم رغيفا صغيرا سألته ، من آين ؟؟ أشار الى الخارج ، اعتبرت هذا عشاء يكفينى • «سنوات» فى عينيها وحشة انتظار ، تقف أمام المطبخ، تمسك خصرها بيديها •

ــ قم واغسل وجهك • أعددت مايسرك • ولم أنس السلطة الخضراء •

ينتصف الليل بعد قليل ، أقاوم ثقل جفونى ، لا أدرى ما الذى يحرك « سنوات » بخفة هكذا ؟؟ ربما تخبىء مفاجاة • عضضت شفتى ، استعدت هزهزة الاوتوبيس ، تعلقت بعينين واسعتين تنظرانني

من فـوق أحـد مقـاعد الدرجـة الأولى ، نافـذتان شفافتان ، يبرقان يرفرفان على عالم فيه راحة . وأمان، ووعود غامضة بالوصول • اتخذت موقعا مناسبا يمكننى من اطلالة عليهما • أحيانا تحولهما صاحبتهما الى الطريق، كأنها تعرفنى ، وتعرف «سنوات» من أين جئت ، والى أين ؟؟ ازددت قـربا ، فى انسـيال النظـرات نبـل أسـطورى ، ألغـاز حضـارة بعيدة • تمنيت النزول ورائها ، أقف على سرها ، أفك رموزها ، تابعت نزولها، اعتذار خفى بكل كيانى ، المحاضرة بدأت فعلا ، هل سأراها ثانية فى أى مكان ، متى ، تقول «سنوات» :

ــ أنظر هذه المجلة الانجليزية • منذ شهور قررت أن أعد لك هذه الأطباق • لن تأكلها مرة واحدة طبعا • انما سـاعدها لك صنفا صنفا ، وكلما سمح مصروف البيت • مد يدك • تذوق ••

قضمت نصف أصبع كفته •

ــ الطبق كأنه تجسد خارج الصفحة •

ــ ولكن ••

مدت يدها ، أصبعها يلامس شفتى ، حركة تفيض أنوثة ورقة ، عاودتنى زرقاء العينين ، زرقة حقيقية ، نغمية ، راودنى يقين أننى سأراها فى الحلم ••

ـ لاتخش المصـاريف • تكاليف الطعـام اليوم بدعوة منى • ياآخى العظيم • عندى بقية نقودى من جمعية قبضتها منـذ شـهور • آنت مدعـو الليلة الى العشاء •

تغدق من عينيها حنو عظيم على ، الخطوة الطبيعية أن أقوم ، آحتضنها ، آقبلها ، ثقـل يحوشنى ، عواطفنا لاتعبر عنها بالقبلات ، حتى مرات سفرى النادرة آكتفى منها بملامسة اليـد ، لانلوح بالأيدى ، ينعقد اللعاب فى فمى ، يبدو الطعام شهيا ، لكن • هل آتساءل عن امكانية بقاء الطعام الى الغد ، تبدو مستعدة لحـديث طويل بعـد العشـاء ، «نفسى آقعـد وآتكلم ••» آود اللجوء الى فراشى فى لحظة ، قبل خطوها الى الداخل • ناديت •

ـ سنوات •••

التفتت •

(٣)

لمحتها •

لم يخنى نظرى ، ولسـت مخطئا • عنـد نهـاية الكوبرى تتدفق المركبـات ، يمكننى القفز من العربة

قبل المحطة • أستدير ألحقها • أتأكد مما رأيته • يبدو النيـل ، أمواجه تمضى فى وثبـات لينة ، النهـار لم ينتصف بعد ، لم تمض دقيقتان ، لاتكفيان للعبور الى الطرف الآخر ، اذن تحركت الى هذا الاتجاه ، بالتأكيد لا تتـأبط ذراعه ، انما تمشى بجواره تمـاما ، يلوح بيـده ، هى صـامتة لكن ملامح وجهها تصـل الحديث بينهما ، أدركت تعبيرات وجههـا فى رؤيتى العـابرة ، بخطى تقترب من الجرى ، حـاولت دخول الحـديقة • صدنى حارس أسمر اللون •

ــ ممنوع • ممنوع ياأستاذ •

لم أجادله ، لابد أنهما اتجها الى الطريق المحاذى للنيـل ، ثلاث درجات بها تقترب الأرض من النيـل ، مـددت البصر ، بلاط مربع كبـير ، التراب مخـلوط بزهور جافة تتسـاقط ، رائحة نبـات مهروس ، تموت هنا أصوات العربات ، الطريق قريب ، لكن ثمة هدوء متراخ فى الفراغ ، لا أحـد هنـا ، كيف • فى هـذه الساعة من النهار ، حتى العشـاق نأوا ، وباعة عقود الفـل ، والتـرمس ، والزهور ، واللب ، ومتـكدرى الخاطر المعتصمين بهدأة النيل ، تلفت ، يمتد الكوبرى كقلعة ضخمة من الصلب والأسـفلت ، دعائمه تطعن

النهر ، تتحرك العربات بلا صوت يدرك هنا ، كأن حاجزا غير مرئى يجمد الأصوات ، يحول المنطوق الى صامت ، أين ذهبا ، تأخذنى رغبة حادة لأراها الآن ، أمد لها يدا ، أتعرف اليه ، أطلب منها أن تجيب ، هل تحبه ، هل تحبه فعلا ؟ أسأله ، هل يحبها ، أمسك أيديهما ، أميل ، أقبلها ، أنتحى بها ركنا ، أصغى الى كل ماتخبئه ، «٠٠ نفسى أقعد وأتكلم معك ٠٠» أخفف عنها ، أزيح ثقلا تنوء به ، ربما دعوتهما الى عصير فاكهة فى الكازينو القريب ، نمشى ثلاثتنا ، ياه ٠٠ لم نخرج أبدا للنزهة منذ وقت بعيد ، لم ندخل سينما ، لم نزر أحد أقاربنا معا ، لا أعرف أسماء صاحباتها ، رأيت بعضهن فى البيت ، بتحفظ صافحتهن ، تجهل أصدقائى ، زملائى فى قسم الدراسات العليا ، لا أتساءل عن الاماكن التى أتردد عليها ، أبدا ٠ سأصارحها الآن بضرورة اقترابنا ، لن أمضى الى الكلية لكن الطريق موحش ، الزحام قريب والخلاء هنا عجيب ٠ عيون النيل الخفية تنظرنى ، ريح خفيفة تحرك أوراق الشجر ، ربما رأيت أسطورية العينين الآن ، سأتقدم منها ، أحدثها عن «سنوات» ، نبحث عنها معا ، فوق النهر يمضى مركب شراعى متمهلا ، لم ألمح فوقه انسانا ، لا أدرى أين ذهبت سنوات ٠ أين

صاحبها ، أين تقيم زرقاء العينين . أين تخفى أسرارها ، يهبط قلبى بمقدار قبضة يد ، ربما تركب قطارا يحملها الى مدينة أخرى ، ربما سافرت الى بلدة بعيدة لن أذهب اليها قط ، تحادث غرباء وتناجى غرباء ، ربما .. ربما رحلت رحيلا أبديا ، ثلاثة أيام مضت على رؤيتها ، مايمكن وقوعه خلالها كثير ، أما سنوات ، أين ، وكأننى ألمحها ، لم أود الاصغاء الى ماتكنه الآن ، أثق فى رؤيتها ، أدركنى عجز وناء بى أسى .

ــ سنوات .. سنوات ...

(٤)

رأيتها تقف بالباب ، أنهيت اضطجاعى ..

ــ تعالى ..

أومأت مرحة ، جلست عند طرف السرير ، تبسط راحتيها ، تضمهما ، تدسهما بين ساقيها .

ــ سأعطلك .

ــ أبدا .

ــ عموما قررت الليلة ألا أنام حتى أراك .

ــ خيرا .

بدلال هزت رأسها ٠

ــ أبدا ٠٠ أراك ٠٠

أطرقت ، على مهل تقول :

ــ وأتكلم معك ٠٠

تتأهب للافضاء بما تود البوح به ٠ فى هذه اللحظة أدركت أننى نسيت تماما ملامح زرقاء العينين ، اختلطت بالزحام ، وأشجار حديقة الأورمان والخضرة الخصبة ، لكننى لم أفتقد خلاصة المعانى ، أين ذهبا اذن ؟ كيف ضاعا منى ؟ رأيت ألا أفاتحها فى الأمر الليلة ، ربما امتد الحديث وتشعب الموضوع ، لست متأهبا للاستفسار والمناقشة ، جاءت بنفسها ، هل لمحتنى أثناء بحثى عنها ، منذ أيام أخفت ضيقها ، حتى الآن لم نأكل معا ، أول أمس ، قالت انها لن تدع يوم الجمعة يفلت ، ستغلق الباب ، لن تسمح لى بالخروج ٠

ــ هل أعطلك ؟؟

ــ أبدا ٠ أبدا ٠

تعض شفتها السفلى ، بحركة خاطفة تتربع فوق السرير ، نظراتها جانبية ضاحكة ، لم أعتد هذا الخجل

الأنثوى ، عنـــدما آنظر الى صـــورها آثنـــاء الطفولة ، لا آتعرف فيهـــا على مقـــدمات هذه الأنثى التى تفيض حيوية • تستعد للحديث •

ــ تعرف ؟

لحظة نطق الكلمة ، بلا قصـــد ، نظـــرت ســـاعة معصمى ، تمضى العقارب الى الثانية صباحا ، قامت •

ــ واضح أننى أعطلك •

بريق الحماســـة خبا فى عينيها ، الألفاظ صرعت عند طرف لســـانها • تدلت يداها ، قطعت حبلا يصل الأشرعة ، مزقت وصلا كاد يتم ••

ــ أبدا • اننى أسمعك •

عبثـــا تلتئم الضفـــاف ، أعطبت ودا رائقـــا فى عينيها •

ــ أعرف مشاغلك ، لن أعطلك •

فى صوتها خيبة من آوشك على بلوغ المراسى ، ثم اكتشف وعورة القيعان ، نتوءات الصخر الحجرى ، فعلا سألقى راحتى بمفردى اتمدد قبلك ، استدعى حوادث يومى ، أرقب دولاب الكتب فى العتمة ، قبل خروجها صحت :

ـ ياه · كدت أنسى · خيـل لى أننى رأيتك فوق كوبرى قصر النيل عند الظهر ··

ـ أنا ؟؟ أبدا · أنا لم أفارق عملى اليـوم كله · يمكنك أن ··

تبدو فرحة قليلا بتلميحى ، صـدور اهتمام من جانبى ، ربما استعادت حماستها ، تعود الى الجلوس ، تحدثنى عما تكتم ، أبدا ، الصدأ يخنق البريق ، تثاءبت، أغدقت حنوا على صوتى ·

ـ أبدا ياسنوات · يكفى قولك هـذا · خيـل لى فقط ·

(٥)

لا أدرى كم نمت ؟ فى هدأة الليل اذ يدركنى قلق، أعود جنينا أتلمس جدران الرحم ، يثقلنى همود الليل، بينما يعدو النهار فى رأسى ، أرى مالم أتوقف عنده فى يومى الراحل ، أستعيد ملامح عجـوز يمشى مرتجف الخطى ، يوشك أ ن يقع ، بعد أيام أدركت هدفه ، فتاة سمراء صغيرة ترتدى زى المدارس الثانوية ، تطل من حقيبتها كراسات ، ومسـطرة ، وعلبة ألوان مائيـة ، يقترب حتى يحاذيها ، يبتعد ليعود من جـديد لحظـة

وصول أتوبيس ، تنتشر الحـركة بين الواقفين ، يزداد قربا منها ، اليوم سمعته يلقى تحيـة مقتضبة خجولة «صباح الخير» أسرع مختفيا ، تنظر الفتاة الى الأمام ، لايعنيها مايدور حولها ، الآن .. تطل زرقاء العينين ، السمات ضائعة ، لكن الجوهر لم يفتقد ، تنظرنى من اطار باهت قديم ، لحن غير منطوق يأتى من جزر بعيدة ، لغز من حضارة قديمة لم يحل ، أضعتها بسهولة ، فى المكتب أثقلنى وجودها داخلى ، قام جلال زميلى ، اقترب منى ، شكا الى ألما فى كليتيه ، قلت اذهب الى الطبيب لعمل أشـعة ، وددت لو ابتعد عنى ، عـدت باحثا عن معنى العينين ، أمسك يـدى ، لامست جنبـه الأيسر ، ضغط أصابعى ، هز رأسه ، ليست هى السبب ، قلت مـاذا اذن ؟ مال الى هامسا ، قال انه منـذ ليلتين فتح النافذة ، لا عمارات أمامه ، يطل على خـلاء وسيع ، أصر أن ينام مع امرأته فى ليلة الصيف الحارة هـذه ، تمدد بجوارها حوالى العاشرة والربع بالضبط ، يذكر الوقت تماما ، التحمـا ، التصـقا ، احتكا ، مثيرات ومقدمات ، كم استغرق ؟ خمس ساعات كاملة ، حتى كادت تجن ، وعندما صرخت من اللذة كان العرق يبلله تماما ، أثناء الحديث صوته يتمهل ، يبدو بطيئا يبتلع لعابه ، أصغيت ، يلقى متعة فى قص التفاصيل ، قال:

بالتأكيد نسمة برد هى السبب ، اذ حــدث فى حــوالى الثالثة والنصف بعد استلقائه هامدا • آن هبت رقائق هواء نفذت كالابر الرفيعة الى كليتيه • قلت يستحسن الاسراع بالعلاج ، البرد فى هذه المناطق وعر وخطر ، لابد من الذهاب الى طبيب ، قام • بعد ساعات عاد الى هامسًا ، خمس ســاعات ، آى والله حتى كدت آجن ، راودنى حنين الى آسرة وآطفال ، آنثى فى متناول اليد• لم أسآل «سنوات» عن آفكارها حول الزواج ، الرجل الذى تنوى قضاء بقية عمرها معه ، صورته فى ذهنها، ربما آحد زملائها ، لا آعرف واحدا منهم ، لم أزرها فى العمل مرة ، غدا سأسألها عنهم ، عن معارفها ، غدا بعد عودتى سأوقظها لو وجدتها نائمة ، نجلس معا ، نتبادل الضحكات ، آمس كنت قاسيا ، غليظ القلب ، عندها ماتود قوله ، لم آصغ ، الآن •• يترامى من بعيد صوت قطار يعبر الخط الحديدى القريب ، بدا الصوت مطاطاً كأنه لن ينتهى ، فى آويقات آرقى يثير فى هذا الصوت حزنا ، وذكرى آياما غائبات ، آرهفت السمع • باب حجرة «ســنوات» يفتح ، التقط صريره الضــئيل فى نهاية الطرقة ، تتجه الى الدورة ، لم تضىء المصباح ، هل آقوم ؟ آقفز آمامها فجاة بعد فتح بابى ؟ دعابة من دعابات الزمن البعيد ، فى البــداية ســتبدى انزعاجا

لكنها تضحك ، نتعانق ، صوت ورق يمزق ، ماذا تفعل «سنوات» ؟ لم يغلق باب الدورة ، واضح أنها تقف أمامه ، أوراق تمزق قطعا صغيرة ، يبطىء صوت التمزيق اذ يزداد سمك الورق فيصعب تقطيعه ، تشد «السيفون» تتدفق المياه بسرعة عالية ، اتخذت من طشيشها ستارا لنزولى من السرير ، أصغيت من خلف باب حجرتى ، أىأمر يحدث ؟ يد طويلة الأظافر خمشت قلبى • تبكى «سنوات» بصوت عال ، نشيجها يصلنى واضحا • أرى جسمها يهتز ، تذرف دمعا ، حتى رأيتها تبكى ؟؟ لحظة انزال «والدنا» غرفة الدفن ، اندفاعها المفاجىء ونواحها الملتاع ، أيدى الحريم تمتد اليها ، تحوشها ، تمنعها • «سنوات» الآن تبكى ، جاءنى صفير القطار من بعيد خيطا متسلخا متعبا ، يذوب فى الليل، عندما انتهى أحدث خواء كونيا وحشيا صارما يثقلنى، لم أدر هل بقيت فى الصالة ، هل عادت الى غرفتها ، هل تقف مكانها ؟ تلملم ماتناثر من قصاصات لتعاود أبادتها ، هل ارتابت فى قيامى فاخرست نوحها ؟ هل سمعت فعلا حركة قدميها وطشيش المياه ، غدا •• أستفسر وأعرف ••

(٦)

طلعت السلم بسرعة ، لن أذهب الى الجامعة ، سنخرج مقعدين الى الشرفة ، نجلس معا ، لن تضايقنا الشمس ، تواجه الآن جانب البيت الآخر ، تدثرنا ظلال حانية ، نأكل معا ، نتحدث ، نتحدث ، «نفسى أقعد وأتكلم معك ••» لا أنسى هزة صوتها عبر الأسلاك ، أصغى اليها ، أقول وكان حديثى يبدو عابرا ، خيل لى فى الليلة الماضية أنك قلقت ، وانك تبكين» •

ـ أهلا • أى مفاجأة •

افتقد رائحة البيت فى مثل هذا الوقت ، عبير الاستقرار ، رائحة الأثاث ، والغسيل ، وطعام طهى فعلا ، حملت الحقيبة عنى ، لاتتحرك بخفة ، افتقدت بهجتها ، عندما نبدأ حديثنا ستتبدد الوحشة • باب حجرتها مفتوح •

ـ الله •• عندك ضيوف ؟

ـ سهام صاحبتى • تعال أعرفك بها • تعال •

قامت سهام ، تبدو خجلة •

أخى ياسهام •

فاجأنى افتقاد زرقاء العينين ،كريستالية النظرات،

لحظات فى مركبة عامة ، عمر طويل من علاقة لم تتصل، طاقة قدر فى سماء فسيحة ، تبرق لحظة ، لايراها الا صافى القلب • فوق السرير مجموعة من صورى ، تعرضها سنوات على صاحبتها ••

ــ لاحديث لسنوات معنا الا عنك • عرفناك قبل أن نراك •

ــ ياه •• سنوات تبالغ •

تراجعت برأسها الى الوراء ، تقول • بجرأة تمحو آثار الخجل الأولى ••

ــ أبدا •• ياسلام ••

هل طالعتنى عيناها فعلا ؟ هل رأيت «سنوات» فوق كوبرى قصر النيل؟ تشب على أطراف أصابعها ، تعاودها سعادة ، تود لو بقيت معهما ، عدت الى الصالة ، تنفذ رائحة البيض المقلى • قالت انها لم تعرف نيتى فى العودة مبكرا ، لم أقل اننى رغبت فى الحديث معها ، أسألها وتجيب ، قالت انها لم تشتر بسطرمة لكنها تظن البيض والجبنة كافيين • عادت الى سهام ، سمعتها تقول انه يرهق نفسه كثيرا ، يخرج من مكتب الترجمة الى الكلية ، يواظب على المحاضرات ، قالت انه لن يهدأ

حتى يحصل على الدكتوراه، بعد الماجستير ، قالت بصوت خفيض ، أوقفت مضغ اللقيمات ، آن آخاها مثابر ، قالت سهام كلاما لم آتبينه ، ضحكت سنوات ، عاودني الصوت خفيضا ، تتوالى دقات هاون نحاس من الطابق العلوى ، خطر لى القيام والزعيق مطالبا بالكف ، الوقت عصر ، البعض يغفو من عناء • سيبدو هذا منفرا ، عادت سنوات تضحك بهدوء ، ضحكا رائقا تذكرت بكاءها ليلة آمس ، بدا قضاء العصر فى البيت مقبضا ، نظرت ساعتى ، يمكنني لحاق المحاضرات •

(٧)

يبدو الحديث مصحوبا بصدى ، تنسال الرؤيا ، تقول سنوات انها ستدعونى ليلة ظهور النتيجة ، سترتدى فستانا لامعا ، آبيض محلى بلآلىء صغيرة ، دقيق كايماءة رآس ، تتآبط ذراعى ، ندخل معا ، نذهب بعد العشاء الى مسرح آو سينما • سكتت لحظة ضئيلة كثقب ابرة ، فى بريق البهجة آلمح الأسى ، فى تدفق الألفاظ آرى تعثر المعانى واختناقها ، شىء ما لا آقدر الامساك به ، يدفع مرارة مقطرة الى ركنى عينيها ، كأنها أهينت منذ قليل ، ثم كتمت ماحاق بها ، فجأة سألتنى : آلا تفكر فى السفر ؟؟ قلت : الى آين ؟؟ قالت : الى بلاد الدنيا ، رآيت رحيلنا معا ، ركوبنا

سفينة لنرى ركنا من الدنيا ، نواجه البحر والمدن النائية والغرباء ، نوقف الناس ونتعرف اليهم . نقيم العلاقات ونكتب العناوين ، نناقش الركاب فى القطارات ، اذ يحاصرنا البرد فى غرفتنا الصغيرة ، بفندق قديم ، نستعيد طفولتنا، ملامح أيامنا الضائعة. نذكر حديث والدنا عن استانبول ، رحل اليها فى شبابه أثناء عمله مدرسا ، سنوات تذكر بريق عينيه عند حديثه عما رآه ، ضفاف البوسفور ، مآذن استانبول ، حواريها الضيقة ، لكنة الآذان الغريبة . قالت : نبدأ باستانبول ، مارأيك ؟؟ أومأت موافقا ، رفعت ذراعا ممدودة الى أعلى ، لندخر المال ، لن أضايقك ، ابتسمت ، لو رأيتك معجبا بفتاة ما فلن أقف حائلا أمامك ، يمكنك تجاهل وجودى تماما ، وكأننى لاأشغل حتى جزءا من الفراغ . أبدا .

(٨)

يرسل المصباح ضوءا واهنا كالوحدة ، البيوت مصلوبة فى سواد الليل ، أربعة رجال يقفون أمام البيت ، أبطأت خطاى ، طفلة صغيرة تلمحنى ، تصرخ .

ــ أبلة سنوات . أبلة سنوات .

أحاطت ساقى بيديها ، ابنة عم محمد البواب ،

تقدموا ، رأيت الشارع ، بلاطه المضلع ، الهواء فى الفراغ ، رائحة غسيل منشور ، رأيت أحد الرجال مرتديا حلة زرقاء بصفين من الزراير النحاسية • رأيت استانبول ، الصور القديم ، فى احداها أحيط سنوات بذراعى ترتدى عقالا عربيا ، أشهر مسدسا بينما يبدو وجهها الطفل رائقا ، رأيت الرحيل ، الأطباق منكفئة فوق طعام بارد ، بينما يهبط داخلى ثقل من رصاص •

ـ أبلة سنوات • أبلة سنوات •

ـ بقيت هنا مغطاة أربع ساعات • لو نعرف تليفونك لاتصلنا بك •

ـ الاسعاف لم تنقلها •

ـ آخذوا عم محمد البواب لسماع شهادته • هو الذى رأى كل شىء •

ـ كان يقف لحظة •

تنفصل الطفلة عنى ، لا أقدر على النظر الى أعلى ، الى شرفتنا ، رأيت شرفات السلالم لامعة • موضع العينين تجويف خال من الزرقة • انتحت الطفلة ركنا، مثلى تماما ، لم تر لحظة مجيئها الى العالم ، ولا لحظة رحيلها عنه ، لاأتبين ملامح الطفلة ، لا أدرك أصوات المتحدثين ، يدمينى النشيج الوعر •

ـ آه • أبلة سنوات • أبلة سنوات •

فهرس

الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٤/٤٥٧٤

ISBN ٩٧٧ – ٠١ – ٠٤٤٣ – ٤

مختارات
فصول

تصدر أول كل شهر

«منتصف ليل الغربة» .. هى المجموعة القصصية السادسة للكاتب الكبير «جمال الغيطانى» ، الذى لفت إليه أنظار القراء بمجموعته القصصية الأولى : «أوراق شاب عاش منذ ألف عام» ، ثم بمجموعاته القصصية التالية ، ثم برواياته الأربع ، وأيضاً بتحقيقاته ومشاهداته كمراسل حربى صحفى وأديب . والغيطانى ذو صوت متفرد ، تأثر فى لغته بلغة ابن إياس ، والتغربردى ، وكتب المتصوفة ، وأخضعها قصصياً لوسائل فن القص الحديث ، خاصة المنولوج ، والتداعى وتفتيت اللحظة ، وتداخل الأزمنة ؛ فهو وثيق الصلة بمعطيات التراث التاريخى ، والصوفى ، وكتب الأخبار والأسمار والمقامات والحكايات فى تراثنا العربى ، والأزمنة الماضية عنده سيالة ومتدفقة تصب فى قلب الحاضر ، وشخوصه ، على عذاباتهم الحياتية والروحية ، لا يتوقفون عن الحب ، والرغبة فى الخلاص ، والتوْق إلى مستقبل وريف .





الهيئة المصرية العامة

٥٠ قرشاً